المُحارِب

رواية

الأمين إبراهيم

المُحارِب
المؤلف : الأمين إبراهيم

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : سبتمبر 2018
رقم الإيداع : 2018/16668
الترقيم الدولي : 978-977-769-228-1

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم
- من صبري أبوعلم - عمارة أنور
وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

الإهداء:

إلى تلك المرأة الحديدية الأمية المثقفة، التى تساوى ألفَ رجلٍ مما تعُدون، إلى أمى الحبيبة.. فاطنة بت الفكى عبد الرحمن..

الحرب مجزرة تدور بين أناس لا يعرفون بعضهم البعض، لحساب آخرين يعرفون بعضهم البعض، ولا يقتلون بعضهم البعض.

بول فاليرى

شاعر وفيلسوف فرنسى

توريت يا وكر الدسائس والخديعة والـــدم
قد طال صمتك في الدجى هل آن أن تتكلمي
الغاب مطرقة الغصون على دجاك المـعتـــم
والصمت والليل الرهيب وخادعات الأنجـــم
لا شيء غير الريح تنفخ في رمـاد المأتـــــم
ومغارة فيها المنايا السود فاغـــرة الفـــم
ونعيق ضفدعة تنوح بـلـــيلك المتجهـــم
يا قطة أكلت بنيها وهي ظـمـــأى للـدم
أمعنت قتلًا في النســـــاء وغيلة للمحـــرم
لم ترحمي حتى صغارهم، ولم تتـــرحـــمي
والشيخ والحبلى، فأي جريمة لم تجـــــــرمي
حتى غدوت مع الدجى وكر الطيور الحـــوم
ومناظـر الأشـــــلاء تنـهضها الغيـــوم فـترتـمي

الهادى آدم

نبوءة الهائم الغامض.. أوشينا

تقدم أشرف وأمسك بالبندقية مركزًا بصره على اللوحة التى تقف على بعد مائتى ياردة أمامه، ومنتصبًا فى وقفة عسكرية استعدادا لإطلاق النار تجاهها.. أصلح من وقفته بأن انحنى إلى الأمام قليلا وضغط بسبابته على الزناد ثم شرع فى إطلاق النار.. أصابت كل تصويباته هدفها، سوى طلقة واحدة تغير مسارها جراء اهتزاز السلاح عند بدء انطلاق الأعيرة النارية.

اندهش غير مصدق أنه أفلح فى إصابة تسعة من العشرة أهداف التى يتوجب عليه إصابتها.. لم يتوقع أنه حاذق إلى هذه الدرجة، واستغرب نجاحه فى هذا الامتحان الذى ظن أنه غير ناجٍ من الفشل فى اجتيازه.. صفق الحاضرون مهنئين براعته، وهمس له صلاح ضاحكًا: ألم أقل لك من قبل أنك ستصبح واحدًا من أميز أفراد قواتنا المسلحة؟.

شكر صلاح بابتسامة عريضة وهو يعود إلى مكانه مفسحا المجال لرامٍ آخر..

توالى الرماة واحدًا تلو الآخر، فكنت لا تسمع إلا لعلعة السلاح تخرج الطلقات من فوهته مصيبة هدفها حينًا، وحينا تذهب أدراج الرياح، وما أكثرها.

انتهى برنامج الرماية بانتهاء آخر مجند لطلقات سلاحه، وقفل المجندون راجعين إلى المعسكر وهم يرددون فى «الجلالات» والأناشيد فرحا بقرب موعد التخرج.

انتصف، أو كاد نهار اليوم الثانى من سبتمبر من العام 2002 عند عودة المجندين من مهمة الرماية، وقد لوحظ بأن هناك حركة وجلبة غير عادية بالمعسكر، فوجود قادة عسكريين من كبار الرتب بمن فيهم وزير الدفاع، مشهد لم تألفه أعين المجندين من قبل، ودخول أسطول من السيارات العسكرية وخروجها محملة بالمستجدين يضع جملة من علامات الاستفهام، سأل أشرف رفيقه صلاح مندهشا: ألم تلحظ شيئًا؟

- رد صلاح: قصدك السيارات التى خرجت من المعسكر محملة بالجنود؟

- نعم.. ووجود مريب لضباط من الرتب العالية..

- ربما هناك أمر جلل..

- لاحظت قبل ولوجنا المعسكر أن السيارات قد ذهبت فى الطريق المتجه إلى مطار وادى سيدنا..

- لنستفسر عن حقيقة ما يجرى..

واصلا سيرهما وصادفا فى طريقهما أحد المجندين وسألاه عن سبب النشاط الزائد فى المعسكر، أجابهما هامسا وهو يتلفت يمنة ويسرة كمن يريد أن يبوح بسر خطير: ألا تعلمان؟ واستطرد فى خبث وعياناه تومضان ببريق غريب: لقد سقطت توريت فى أيدى المتمردين.

- متى حصل هذا؟ سأل أشرف بنبرة حاول أن يخفى فيها توتره..

- أمس أم اليوم لا أدرى.. قالها بابتسامة ماكرة وهو يتفرس فى وجيهيما كأنه يستقرأ ما ظهر على قسماتها من ردة فعل.

شكرا له مدهما بالمعلومة المبتورة ثم انصرفا نحو خيمتهما وقد عقدت الدهشة لسانيهما، فالمتمردون والحكومة وقعا قبل نحو أربعين يومًا على اتفاق إطارى يبشر بوطن جديد خالٍ من الحروب، واتفقا على وقف إطلاق النار تمهيدا للوصول إلى سلام دائم، فما الذى حدا بالحركة الشعبية إلى خرق ما توصل إليه الطرفان؟ قال أشرف بحزن: إذن اتفاق «مشاكوس» كان مجرد ضحك على الذقون..

رد صلاح: لم يكن كذلك..

ـ كيف لا، ومتمردى الحركة يستأنفون إطلاق النار، ويسقطون مدينة؟

- فعلوا ما فعلوه للانطلاق من أرضية صلبة حتى يحققوا أجندتهم..

- إذًا سيتجدد القتال وستعود الحرب إلى المربع الأول..

- بالتاكيد، فالحكومة لن تسكت، وستحشد كل قوتها لاسترداد المدينة، ولعل «المستجدين» الذين رأيناهم يغادرون المعسكر قبل قليل هم الآن فى طريقم إلى مطار وادى سيدنا لترحيلهم إلى الجنوب..

- كيف يتم ذلك وفيهم من لم يتدرب على إطلاق النار؟.

- سيكون ذلك بالقرب من أرض المعركة.. لقد تم من قبل كثيرًا!!

- هذه ارتجالية.. الآلاف ستُحصد أرواحهم بعدم الدربة والدراية،

ناهيك عن الخبرة التى تنقصهم والتى لابد منها فى مثل تلك الأحراش..

– على العموم هذه مجرد تخمينات، وأضاف صلاح بلهجة غلب عليها طابع المرح؛ فالنبِلّ رؤوسنا، قالها ضاحكًا، ثم أردف وهو ينظر إلى رفيقه: إن صحت توقعاتنا، حتمًا سيأتى الدور علينا.

وصلا إلى خيمتهما، وقبل أن يغيرا ملابس التدريب سمعا زعيق صافرة النداء، فقفلا راجعين إلى باحة المعسكر حيث اصطفت الجموع وهى فى حالة وجوم تام انتظارًا لما ستسفر عنه الدقائق القادمة.. انبرى ضابط برتبة عقيد وبدأ حديثه عن تاريخ المؤسسة العسكرية والانتصارات التى حققتها منذ نشأتها، معددا مآثرها فى الذود عن وحدة البلاد، ومثمنا ما يقوم به أفرادها من تضحيات حفاظًا على تراب الوطن وأهله.

واصل العقيد حديثه قائلًا فى حزن: بالأمس قام المتمردون بالهجوم على مدينة توريت، فانسحبت منها قواتنا تكتيكيا حفاظا على الأرواح والممتلكات، وقد تقرر وقف المفاوضات مع المتمردين والاستعداد لاسترداد المدينة، قال ذلك ثم صمت برهة قبل أن يمضى فى حديثه وقد تغيرت نبرة الحزن التى كانت تعلو صوته، فقال بحماس: إن القوات المسلحة وإيمانا منها بدورها على الحفاظ على أمن الوطن لن تألو جهدًا، ولا تدخر وسعًا فى أن تحشد كل طاقتها لردع كل من تسول له نفسه المساس بتراب ووحدة الوطن، ونحن هنا فى هذه الساعة لشحذ همم الشباب للدفاع عن الدين والأرض والعرض، وليس لمثل هذه المقاصد النبيلة سواكم.

تأخر العقيد وتقدم ضابط آخر برتبة ملازم أول.. حيا الجموع تحية عسكرية وخطب فيهم خطبة حماسية حركت فى الصفوف روح القتال، ارتفعت الحناجر بالتكبير والتهليل.. استغل الملازم حماس المجندين فقال: وحدكم أنتم من يستطيع ردع الخونة والمأجورين والعملاء ولا غرو، فأنتم درع بلادنا الذى تتكسر عليه نصال أعدائنا الذين يتربصون بنا، فالعالم كله يشهد ببسالة جنودنا الذين يقدمون أرواحهم رخيصة فداء لتراب الوطن الحبيب.. غدا سترجع توريت إلى حضن الوطن، وسوف يتم ذلك بسواعدكم الفتية وعندها فقط سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

التفت الملازم وراءه وتحدث إلى عسكرى كان يقف خلفه، فمد له الأخير بأوراق يبدو أنها تحتوى على بعض الأسماء التى تم اختيارها للذهاب إلى الجنوب.

تلا الملازم الأسماء، وكان من بينها اسم أشرف ورفيقه صلاح اللذيْن أسقط فى أيديهما واسماهما يقعان على آذانهما.. تسمر أشرف فى مكانه غير مصدق أذنيه، ورجع بذاكرته إلى ما قبل سبع عشرة سنة خلت.. فقد تذكر فجأة تلك الحادثة التى طوتها ذاكرته مع ذهاب الأيام والسنين.

كان نهارًا قائظًا من نهارات أواخر سبتمبر التى يطلق عليها الناس فى أواسط البلاد «نِهْرات الدرت».. كان حينها فى المرحلة المتوسطة، وتحديدًا فى السنة الأولى، قرع الجرس إيذانا بانتهاء آخر حصة من اليوم الدراسى، لملم أشرف كتبه ثم حملها وغادر الفصل على عجالة برفقة صديقيه الهميم

ود الضو ومتوكل عثمان، رأوه من بعيد يسير نحوهم، كان الشارع خاليًا من المارة إلا من بعض طلبة المدارس، لم يكن يكلم أحدًا على الإطلاق، حار الناس فى أمره، إذ يزعم البعض أنه ضابط فى جهاز أمن النميرى، ويعتقد آخرون أنه من أولياء الله الصالحين الذين يهيمون على وجوههم فى الفلوات، بينما اعتبره البعض إما مجنونا ربما لفظته إحدى المصحات بعد عجزها عن تداويه، أو معتوهًا ضاقت به مدينته أو قريته فرمت به إلى حيث يسير هائمًا على وجهه على غير هدى، نُسجت حول شخصيته الغريبة كثير من القصص والحكايات، تحدث الناس عن كراماته التى لم يشاهدها أحد بكثير من المبالغات.. أطلق عليه ذوو الخيال الخصب اسم أوشينا. بالشين المعجمة. يقول أحد أولئك الخياليين إنه سمع صوتًا ذات ليلة شاتية والناس نيام يترنم بتلك الكلمة الغريبة؛ كان صوتًا رخيمًا قد داعب أذنى فنهضت من مخدعى وتوجهت إلى حائط السور يدفعنى الفضول لمعرفة مصدر ذلك الصوت الذى شق سكون الليل الساجى، وضعت كفّىّ بأعلى الحائط وارتفعت بالنصف الأعلى من جسدى فرأيت شبحه على ضوء القمر الذى كان فى طور الأحدب الثانى، رأيته يمشى بشارع منزلنا بطريقته التى عهدها الناس، كان يسير ببطء، غير عابئ بجوقة النباح الذى زفه به موكب كلاب الحى، رافعًا عقيرته بصوت أقرب إلى صوت الكروان وهو يردد بلحن شجى ونغمة حزينة: أوشينا، أوشينا، أوشينا، يقولها ثلاثًا ويمط بالثالثة حتى تتقطع أنفاسه، ويصمت برهة ريثما يلتقط أنفاسه ثم يستأنف من جديد، فى اليوم التالى مباشرة

للحادثة انتشرت تلك الكلمة فالتصقت به حتى أضحت له اسمًا وأصبح لها عنوانًا.. لا أحد يعلم على وجه التحديد من أين جاء، ولا ماذا يعمل، ولا أين ينام، ولا متى وكيف يتناول طعامه، كل الذى يعلمه الناس عنه أنه رجل غريب، شوهد ذات يوم يسير فى الشارع تقوده قدماه المفلطحتان كخفى بعير، يغدو صباحًا، ويروح مع اقتراب الغروب، إلى أين؟ لا أحد يعلم.

لم يكن ظهوره فى هذه الساعة مألوفا لدى الناس، كان فى العادة يظهر فى الصباح الباكر متجهًا ناحية الشرق عند شروق الشمس كأنه على موعد معها، أو كأنه أحد عبدتها، يسير فى الشارع الذى يقسم القرية إلى نصفين، الشارع الذى يبدأ مع القرية من جهة الشرق ويشق بيوتها ممتدًا إلى الغرب حتى نهايتها، كانت تتدلى من يده «بقجة» تبدو وكأنها كل ما يملك من «متاع» فى هذه الدنيا، تلك البقجة التى لا يذكر أحد من الناس أنه رآه بدونها، كان يرتدى جلبابه الوحيد الذى لوحته حرارة الشمس، ويعتمر طاقية لونها أقرب إلى لون الأرض، وينتعل حذاء غريب الشكل، تشابكت سيوره الرفيعة المتينة التى بصمت عليها تضاريس الطبيعة، وتراكمت عليها ذرات الغبار حتى أحالتها لما يشبه سيورًا صنعت من الوحل، فيخيل إلى الناظر إليها أنها فصلت من جلد حيوان أسطورى، كان حذاء غريبًا حقًا، فهو ليس ككل الأحذية التى يعرفها الناس، كان بشكله البيضاوى، أو بالأحرى الشبه دائرى أشبه بقارب بلاستيكى صغير صنع ليسير على اليابسة، ويبدو أن من قام بصنعه وتفصيله كان

يعلم جيدا فى أى قدمين سيستقر.. نظر أشرف إلى وجهه الأسود الداكن الذى يجلله الوقار وألقى عليه بالسلام، حدجه بنظرة خالية من أى تعبير ومضى فى حال سبيله دون أن يرد، صاح فيه بشقاوة طفولية كانت تميزه عن أقرانه: «أوشينا» رددها مرارا بذات اللحن الشجى الذى روى عنه وانتشر بين الناس، التفت أوشينا بجسمه كله وقد تغيرت سحنته تماما، وكست وجهه الأسود الداكن الذى يتسم بالجمود سور الغضب فحرك شفتيه الحمراوين الغليظتين، وانطلق لسانه بسيل من العبارات الغاضبة، كان يغمغم بكلمات لم يتبينوا منها إلا عبارة واحدة، قال بلهجة وسط البلاد والرزاز يتطاير من بين شفتيه البرصان وهو يوليهم ظهره؛ يوم ما سوف تفتك بك الوحوش بالجنوب، قال ذلك ثم مضى يتعثر فى أسماله، تتدلى من يده بقجته التى ألفها الناس كجزء أصيل من هيئته، وتتأرجح مع مشيته الوئيدة يمنة ويسرة، وتستقر هنيهة بين ساقيه فتجعل خطواته المتئدة أكثر اتئادًا.. فوجئوا بردة فعله العنيفة، إذ لم يتوقعوا منه كل ذلك الغضب، لا سيما والرجل اشتُهر بين أهل القرية بذلك الصمت الذى كان يضفى على شخصيته الغامضة بعضًا من القداسة، التقت نظراتهم فانفجروا ضاحكين من طريقة كلامه وصوته الذى يقع على الأسماع كأنه صادر من آخر جوفه، ويخرج بنبرة هى أشبه بصوت طائر الرهو، ذلك الصوت الذى لم يسمعه أحد غيرهم، باستثناء الشخص الذى سمعه يشدو فى تلك الليلة إن صحت روايته، وأيضا شخص آخر يتحاشاه الكبير قبل الصغير، كان يسير خلفهم.

نسى أشرف ذلك الموقف الذى مر عليه أكثر من سبعة عشر عامًا ولم يذكره إلا فى اللحظة التى سمع اسمه ينطق به الملازم، تذكر ذلك الوجه الأسود الداكن الذى يجلله الوقار، هاهو ذا شبح خياله يقف حياله بقامته المديدة والعرق يتصبب من جبينه وشمس سبتمبر ترسل لهيبها الحارق، وضع كتبه على الأرض وطفق يصفق ويدق بأرجله على الأرض بإيقاع منسجم تماما مع اللحن، ومرددا فى شقاوة؛ أوشينا أوشينا بذات اللحن الشجى الذى سار بين أهل قريته، ما الذى جعل عبد الدائم القطيم يخرج فى مثل هذا الوقت، ولماذا لم يقيلل كعادته؟ كانوا يرونه عند عودتهم من المدرسة مستلقيا على «عنقريبه»* الشبه محدب ذى الأرجل الطويلة، والمشغول من جلد البقر -وهو ما يعرف عند الأهالى بـعنقريب «القِد »- يغط فى سبات عميق تحت ظل راكوبة. مظلة- غرفته الوحيدة التى خلع عليها متوكل ذات سخرية اسم عش الدبور، تلك الغرفة التى تقع على يمينهم عند عودتهم من المدرسة، والمبنية من اللبن ولا يحيط بها أى ساتر يحجز عنها أعين الفضوليين، ترى من أين جاء فى هذه الساعة؟ هم الآن قد تخطوا منزل السكرية بت الجاك بأمتار قليلة، المرأة الأربعينية الذربة اللسان، اللعوب التى طالما حامت حولها الشبهات، فكم من مرة شاهدوا الخضر ود الأحيمر الذى يدّعى الاستقامة ويؤم أهل الحى فى رمضان عند ساعة الإفطار يخرج من بيتها متثاقل الخطى، زائغ النظرات تائهها، ومقطب الجبين إذ تبدو على وجهه علامات الاضطراب، أيكون عبد الدائم هو الآخر قد خرج من بيتها فى هذه اللحظة؟ والسكرية بت الجاك،

وقد يكون هذا الاسم حركيا، وربما كان اسمها الحقيقى.. فلا أحد من الناس يعلم حقيقتها، جاء بها أحد المزارعين فى أواخر السبعينيات مع نفير لجنى القطن، وذلك حينما كان للقطن أهميته الإستراتيجية سواء للمزارع أو الدولة، أعجب السكرية سكون القرية وهدوءها وطيب معشر أهلها فاستمرأت العيش بينهم، وربما وجدت شيئًا غير الذى ذكرناه جعلها تفضل الاستقرار بين ظهرانيهم، المهم فى الأمر أن وجد لها أحد المشكوك فى نواياهم عملا بالمركز الصحى، ووهبها قطعة أرض صغيرة بجانب داره الرحبة بنت عليها غرفة متواضعة تقيها زمهرير الشتاء وحرارة الصيف، كانت السكرية من النساء اللائى يتصفن بالغنج، وهبها الله مسحة من الجمال لا تتوافر لدى الكثير من الحسان أنفسهن، فهى امرأة فارعة الطول، تعلو وجهها المستدير الفاقع السمرة نضرة تخلب لب كل من رأى تقاطيعه المثيرة، كانت تماما كتلك التى قال فيها قيس بن الملوح:

ومفروشة الخدين وردًا مضرجًا
إذا جمشته العين عاد بنفسجا
شكوت إليها طول ليلي بعبرةٍ
فأبدت لنا بالغنج درًا مفلجا
فقلت لها مني علي بقبلةٍ
أداوي بها قلبي فقالت تغنجا
بليت بردفٍ لست أستطيع حمله
يجاذب أعضائي إذا ما ترجرجا

وعبد الدائم القطيم نفسه، الرجل الخمسينى الأعزب، كانوا يصيخون السمع إلى همس الكبار وهم يلوكون سيرته بكثير من الاستهجان عندما يذكرون عزوبيته وعزوفه عن الزواج، ويتحدثون ومتعة الغيبة تبرق بها عيونهم عن علاقته المشبوهة بالسُّكَّرية، لقد سمع أشرف ذات مرة عمه الصافى يقول عنه أمام ملأ من الناس، وكانت قد حدثت بينهما مشادة كلامية كادت أن تنتهى إلى معركة لولا تدخل العقلاء، والصافى ود عبد الكريم يكاد يكون الرجل الوحيد فى القرية الذى يستطيع التصدى لعبد الدائم القطيم، سمع أشرف عمه يقول فى غضب؛ هذا النجس زير نساء. قالها الصافى بالنص نفسه. حينها لم يستوعب عقله الصغير ما المقصود بزير نساء إلى أن شرح له الهميم المعنى الذى تنطوى عليه تلك الكلمة التى عجز عن فك طلاسمها، نعم كانت هنالك شائعات تتحدث همسًا عن علاقة مشبوهة بين عبـــد الدائم والسكرية، لكن لا أحدًا يستطيع أن يجهر بذلك علانية، خشية الوقوع فى حبائله، وفى قريتهم الصغيرة التى تقع على الضفة اليسرى للنيل الأزرق عند المنحنى الصغير الذى يتجه إلى الجنوب الغربى بطول ألفى متر فى زاوية شبه منفرجة، قبل أن يعود إلى الشمال الغربى عند نهاية القرية، الناس كبيرهم وصغيرهم يصغون إلى الشائعة بكثير من الاهتمام، ولا تخفى عليهـــم خافية أبدًا، فحتى دقائق الأسرار تجدها عند أصغر طفل، فالإشاعة هنا تنتشر فى دقائق انتشار النار فى الهشيم، إذًا وعلى ضوء تلك الشائعات التى يمشى بها النمامون والمرجفون فى القرية، فليس هناك ريب فى أن عبد الدائم خرج

فى هذه الساعة من بيت السكرية، يهمس الهميم ود الضو عنه فى إحدى جلسات أنسهم المسائية مصرحًا، وعيناه الواستعان تومضان فى شبق؛ أن غرفته الوحيدة وغرفة عبد الدائم تقبع وحيدة بعيدًا عن البيوت بالقرب من البئر المهجورة المسماة ببير الجن. لا يذكرون أنهم رأوا أحدا يدخلها، تعد مسرحا للكثير من المشاهد الجنسية الساخنة، بطلاته من يفدن من مناطق مختلفة للعمل فى مواسم حصاد القطن، يضيف الهميم بنبرة مراهق يتحرق شوقا لممارسة ما يفعله عبد الدائم والذين يقومون بفعل مماثل؛ كان يغريهن بزيادة أجورهن عن رصيفاتهن لدى بقية المزارعين ويستدرجهن حتى يستميلهن، فيتم له مراده حينما يأتينه بدعاوى تقاضى أجورهن، يستمر الهميم فى حديثه الهامس المثير الذى يجعل صديقيه فاغري فاهما إعجابا ودهشة ومتعة؛ الموسم الماضى رأوْه يحمل إحداهن من حمارها ويتوغل بها إلى داخل الحواشة، وعندما أحس بأن هناك من يرقبه ويتعقبه عن قرب تظاهر بأنه يقوم بتعليمها كيفية جنى القطن.. ترى كيف يمارس عبد الدائم الجنس مع أكثر من واحدة فى آن واحد كما يزعم صديقه؟ ومن هؤلاء الأشقياء الذين سولت لهم أنفسهم متابعة ومراقبة عبد الدائم وهو يدخل إلى حواشته. مزرعته. حاملا فريسته؟ وهل صحيح أن عبد الدائم متزوج بجنية من جيرانه ساكنى بئر الجن كما تزعم الشائعات على لسان صديقه؟ كلام فى غاية المتعة لطفل جامح الخيال سيتخطى بعد قليل مرحلة الطفولة إلى ما بعدها، بيد أنه غير مقنع البتة، ومن أين للهميم كل هذه المعلومات التى لا تتوافر إلا لبعض الموهوبين فى فبركة الشائعات

من الكبار؟ فهو فى مثل سنى أشرف ومتوكل بالضبط، ولا يفترض به أن يكون ملمًا بمثل هذه المعلموات وهو فى هذه السن المبكرة، غير أنه كان أكثر اهتماما وأوفر حظا منهما فى التقاط الشائعات وجمع تلك المعلومات الفارغة، كما أنه أكثر ذكاء وبسطة فى الجسم، فأبوه هو الضو ود المبارك أحد جزارى القرية المشهورين، ولذلك فإن الهميم قد بلغ سن الرشد قبل صديقيه بعام بأكمله، كان عبد الدائم القطيم يسير خلفهم، محاذيا لمنزل السكرية بنت الجاك، لم يكونوا يشعرون به حين شرع أشرف فى احتفاليته الصغيرة، والغريب أن قدر أشرف وسوء حظه ومنذ طفولته الباكرة دائما ما يفاجئه بمجابهة عبد الدائم فى مثل هذه المواقف، صاح بغضب: يا ود حامد أنت ولد قليل أدب، التفت ثلاثتهم إلى مصدر الصوت، يا للهول، إنه عبد الدائم القطيم، الفظ، غليظ القلب الذى ترتعد لمجرد رؤيته الفرائص وتنخلع القلوب، ناهيك إن كانت هنالك مشكلةٌ ما، ماتت الضحكة فى حلاقيمهم الصغيرة التى جفت من الرعب، استمر عبد الدائم فى زجره وتقريعه وقد استشاط غضبا فطفق يسب ويلعن آباءهم وأمهاتهم ومدرسيهم واليوم الذى ولدوا فيه، كانوا ينظرون إليه بعيون كادت أن تخرج من محاجرها الصغيرة، تسمروا فى أماكنهم وهم يحملقون فى عينيه اللتين أومضتا ببريق مخيف، أحسوا بأن قلوبهم المرتاعة قد بلغت الحناجر، ولحسن حظهم لم تكن فى يده عصاته الخيزران التى لم ينجُ من ضرباتها الموجعة كل من رمته الأقدار فى طريقه، وإلا لكان أوسعهم ضربًا، هاهو أوشينا ينتصب أمامه محدقًا فيه بنظراته النارية،

وعلى شفتيه البرصان ارتسمت ظلال ابتسامة شامتة، كان لضحكة الهميم ود الضو المجلجلة التى يهتز لها جسده كله صدىً ملأ أرجاء المعسكر، ونفحة من رائحة الحبر الذى تلطخت به أصابع يد متوكل الذى حاول تكميمه تملأ خياشيمه الآن، ودغدغة لذيذة من أصابع جدته السرة بت الرفاعى ذات القلب الحنون وهى تحاول قرصه فى أذنه محذرة إياه بمودة وحرص شديدين من العواقب التى سيجنيها بفعل رواشته. شقاوته- التى فاقت كل تصور، إذا فقد عرفت هى الأخرى، ومن المؤكد أن عبد الدائم هو من أخبرها، ياله من رجل لئيم. ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة، وطيفا أوشينا وعبد الدائم يحلقان من حوله، يوما ما سوف تفتك بك الوحوش فى الجنوب، رنت تلك الكلمة فى أذنيه كانه يسمعـــها فى هذه اللحظة؛ أفاق من تخيلاته وخرج من الصف ممتعق الوجه وتوجه إلى حيث اصطف الذين تم اختيارهم، وقف إلى جانب صلاح الذى سبقه، وهمس فى حنق ظاهر وهو ينظر فى عينى صديقه الذى شحب وجهه: هذا ما كنت أخشاه..

- رد صلاح فى ضيق وتبرم: هذا ما توقعته تماما..
- وما العمل..
- الإذعان، ولا شيء غيره..
- وابنى الذى لم أره.. والدى المُقعد.. عائلتى الصغيرة، والكبيرة..
- لهم الله..
- حسبنا الله ونعم الوكيل.. قالها أشرف بمرارة شديدة، وأضاف

بمرارة أشد: ألم أقل لك من قبل أنه لا يزال هناك ضحايا ينتظرون على الرصيف؟.

بدأ الإحباط يتمكن من نفس أشرف، وبدأ يتوجس من القادم، إذ لم يتوقع أبدا تجدد وتسارع الأحداث على هذه الوتيرة، فالذهاب إلى الجنوب لم يكن من بين الأشياء التى حسب لها حسابًا، ولم يفكر فى ذلك فى أكثر الأوقات تشاؤما، فقد ظل طوال فترة وجوده بالمعسكر ينتظر اللحظة التى سيتم فيها انعتاقه من ربقة هذا السجن الذى وجد نفسه بين عشية وضحاها محبوسًا بين أسواره الحصينة بلا حول له ولا قوة.. كان أسوأ ما توقعه أن يمضى فترة الخدمة الإلزامية بمنطقة بعيدة عن قريته فلا يسطيع رؤية ابنه وأهله إلا فى فترات متباعدة، أما أن يذهب إلى الجنوب فهذا ما لم يكن فى حسبانه.

ما كان الموت هاجسه، فهو لا محال آت، أكان ذلك فى ميدان القتال، أو فى حقله، أو على سريره أو فى أى مكان آخر، فالذى جعل الإحباط يتغلغل فى حنايا نفسه، أنه لا يدرى كم من الشهور أو السنين سيغيب عن موطنه، فقد تستمر الحرب إلى أمد لا يعلمه إلا الله، فهى لم تتوقف منذ نحو تسعة عشر عاما.. إذن سيذهب إلى أحراش الجنوب، ولن يعود إلى الديار قبل أن يتم عاميه فترة الخدمة هذا إن كذبت نبوءة ذلك الهائم الغامض أوشينا، وبقى على قيد الحياة.

فى الأحراش والأدغال..

حبات المطر تتساقط كأنها أدمع تنثال من حدقة السماء.. تتساقط فى أناةٍ ورتابة مبللة جبين المدينة الحزينة، وتتناثر حباتها اللؤلوية على الجثث التى اصطبغت بلون الدم القانى الكئيب كأنها تقوم بغسلها لتخفى معالم الجريمة التى سلبت تلك الجثث أرواحها.. صوت المدافع يجلجل فى الأرجاء بوحشية ضارية، وسرب من الطائرات يحلق فى الفضاء الرمادى ناشرًا الذعر والموت والخراب.. السماء تحيك من الغيوم قناعًا تتدارى به عن ما يحدث على الأرض من وحشية وبربرية رعناء، فالإنسان صار أكثر ضراوة من وحوش الغاب، وسفك الدماء أمسى عنده أسهل من شربه الماء، والحياة باتت كأنها غابة للشر، لا يستقيم أمرها إلا بالقتل والدمار.

البيوت التى دكتها بشاعة الإنسان بواسطة آلته الحربية المقيتة، تدثرت بعباءة الموت فغدت كأنها كهوف درستها حوافر الزمن.. الأشجار حداد تهدلت أغصانها رغم أنه موسم كرنفالها السنوى الذى تتزين له احتفاءً وابتهاجا وهى تستقبل غدق السماء.

صاح أشرف وهو يهم بركوب السيارة «الجيب«: لعن الله الحرب ودمر مؤججيها، ثم صعد على متنها بصعوبة، ساعده السائق وهو

يمسك به حتى أجلسه على المقعد.

جلس متهالكا من شدة الإعياء، فقد كان جرحه غائرا ولم يتوقف عن النزيف رغم الإسعافات التى أجريت له بأرض المعركة، معركة تحرير توريت التى راهنت عليها الحكومة، وجيشت لها الجيوش وحشدت لها كل قوتها، وكان أن بدأتها بمعارك حاولت فيها اختراق وتدمير الدفاعات التى طوق بها المتمردون المدينة، جرت أولى تلك المعارك فى خور إنجليز الذى يبعد خمسة وعشرين كيلو مترا شمالى مدينة توريت، وكان إشرفا مع الطلائع الذين أوكلت لهم مهمة اختراق دفاعات جيش المتمردين التى حصنوا بها المدينة.

كان هناك مصابان آخران جلسا صامتين على المقعد الخلفى، وقد بدا أن إصابتيهما لم تكن أقل خطرا من إصابة أشرف، ظهر ذلك فى شحوب وجهيهما، والأنات التى كانت تصدر من كليهما .. التفت أشرف وحياهما بعد أن تمهل فى جلسته ثم أعقب مواسيا بمرارة شديدة: هذه ضريبة الوطن التى أرادها لنا طرفا النزاع، أن تسيل دماء أبناء الوطن الواحد وتزهق أرواحهم وتقدم قرابين لكراسى لم تدم لأحد من قبل.. هذه الحرب ليس فيها منتصر.. الطرفان خاسران، والخاسر الأكبر هو الشعب الذى كادت أن تفنيه هذه الحرب اللعينة.

لم ينبسا ببنت شفة واكتفيا بأن أومآ برأسيهما، فما يعانياه كان أكبر من أن تعبر عنه الكلمات.

تحركت السيارة صوب مدينة جوبا، وقد سبقتها سيارتان، تقل

إحداهما بعض الضباط المصابين بينما حوت الأخرى قوة من الجنود المدججين بالسلاح لتمشيط الطريق وتأمينه خوفا من وجود بعض الجيوب التى قد تعرقل سير القافلة. مضت السيارة تشق طريقها عبر ممر ترابى وسط الحشائش العالية، قال أشرف موجها حديثه للسائق وهو يضغط بيده على موضع الجرح: هيا أسرع بنا فقد فقدت كمية كبيرة من الدماء وأخشى إن لم نصل فى الوقت المناسب أن أفقد دمى كله.. رد عليه السائق وهو يمد بيده إلى مؤشر الراديو أمامه ويديره باحثا عن محطة إذاعية، ثبت المؤشر على إذاعة أم درمان وهو يردد: إن المسافة بين توريت وجوبا ليست طويلة، كلها ساعة ونصف من الزمان ونكون قد وصلنا المستشفى العسكرى بجوبا.

توريت يا توريت يا أرض الفداء، آليت اجعل منك مقبرة العداء.. سمع أشرف هذا المقطع من الأنشودة التى كانت تبثها إذاعة أم درمان على مدار الساعة فى تلك الأيام من أوائل أكتوبر للعام 2002، فأمال ظهره إلى الخلف قليلا، ثم أغمض عينيه وسرح مسترجعا شريط الذكريات.

***

سأل الطبيب بعصبية: أما من أحد مع هذه السيدة؟..

أتاه صوت من الخلف: أنا يا دكتور..

التفت الطبيب إلى مصدر الصوت ثم قال وهو يمد يده بورقة لأشرف الذى كان يقف خلفه: يجب أن تأتينى بهذه الأدوية حالًا، فقد فقدت هذه السيدة كثيرًا من دمها بعد إجراء العملية.

خطف أشرف الروشتة ثم خرج مسرعا، وتوجه نحو الصيدلية.. وصل إلى هناك ومد بالروشتة إلى الصيدلانى الذى أبلغه فى أسف بعد أن اطلع على محتواها: لا توجد لدينا هذه الأدوية ونصحه بأن يذهب إلى أى صيدلية تجارية وسيجد ما يبحث عنه.

خرج من إحدى البوابات وهو يغذّ السير، وقبل أن يعبر شارع الأسفلت أحس بقبضة فولاذية على كتفه، التفت وراءه خلسة ليفاجأ بشخص مديد القامة يمتشق بندقية وفى وجهه صرامة وجمود ينمان عن قسوة تتناسب وبزته العسكرية.

ارتفع حاجب الدهشة لدى أشرف والرجل يباغته مستفسرًا عن هويته: بطاقتك!!

ـ بطاقتى؟!.. آه بطاقتى، تذكر أشرف أنه لا يحمل أيًا من الأوراق التى تدل على هويته، فقال بمسكنة: إنها ليست معى.. قال ذلك وهو ينظر فى عينى العسكرى، ثم أردف بصدق: نسيتها فى البيت.

– إذن رافقنى إلى تلك السيارة، قالها العسكرى بحزم وهو يشير بيده إلى سيارة كانت تقف عند ناصية الشارع.

بهت أشرف وأحس أن قدره أوقعه فى فخ واحدة من الحملات العسكرية التى تتصيد الشباب، فتحملهم على أداء الخدمة الإلزامية، سكت برهة قبل أن يقول: لمَ؟ واستطرد فى رجاء: سيادتك لدى مريض بالمستشفى على فراش الموت..

– بلا مريض بلا «كلام فارغ» كلكم كذابون هذا تهرب من ضريبة

الوطن..

- أقسم أن لدى مريضًا بالمستشفى، وهاك انظر روشتة الدواء..

- دعك من الروشتة، هذه الحيل لا تنطلى على عسكرى مثلى.. و»بلاش» لف ودوران، تعالَ معى إلى السيارة.. قالها العسكرى بلهجة حاسمة قطعت كل رجاء، مما اضطر أشرف إلى السكوت وهو يتوجه إلى السيارة فى قبضة العسكرى الفولاذية.

انحشر مع العشرات بعد أن صعد إلى السيارة وهو يسب ويلعن، فقد تأكد له أنه فى الطريق إلى أحد معسكرات التدريب الذى ربما أمضى فيه خمسة أو ستة أسابيع يتعلم خلالها بعض الأسس العسكرية من تدريبات وغيرها، والتمرن على الرماية وكيفية فك وتركيب السلاح، ومن ثم ربما التوجه إلى مناطق العمليات فى جنوب السودان.

أدرك أنه فى ورطة حقيقية، فقد ترك زوجته طريحة الفراش، ولا أحد معها غير أمها التى لا حول لها ولا قوة، وابنه الذى لم تمضِ على ولادته إلا سويعات لم يستطع خلالها رؤيته، وها هو الآن يقف مكتوف الأيدى لا يدرى ماذا يفعل بعد أن رمى به حظه العاثر فى طريق إحدى الحملات العسكرية التى تقوم بالقبض على الشباب وإرغامهم على أداء الخدمة الوطنية قسرًا.

تحركت السيارة وهى عبارة عن شاحنة ماركة ميتسوبيشى. بنى عليها فنيو الحدادة بورش الصيانة الفنية صندوقًا من الحديد يقوم على قوائم من الزوى الصلبة، ووضعت على أعلى سقفه ألواح خشبية رُصت بغير عناية

تقى بالكاد من بداخله حرارة الشمس، وبجانبيه لُحمت كنبتان متقابلتان من الحديد يفصل بينهما ممر عريض يتسع لعشرات الأفراد وقوفا.

انطلقت السيارة بعد أن أغلق العسكرى بابها الحديدى، واتجهت نحو المعسكر وبداخلها تكدس العشرات من الشباب البائس الذين قبعوا فى حالة من الذهول غير مصدقين ما حدث لهم.

جلس أشرف متهالكًا على واحدة من الكنبتين بعد أن أفسح له أحد الجلوس مكانًا.. فاستقر وهو ينظر إلى من حوله فى ضيق وتبرم، ويتفرس فى الوجوه الشاحبة التى ارتسم عليها العبوس، وبينما السيارة تنهب بعجلاتها الأسفلت نهبا أدار وجهه ناحية جاره وساله فى ضيق وتبرم: إلى أى معسكر سيرموا بنا؟

- لا أدرى .. ولكن ربما ذهبوا بنا إلى فتاشة..

- وأين يقع هذا المعسكر؟

- ما رأيته.. ولكن حسبما سمعت يقع غرب أم درمان، وأردف: على ما أظن مسيرة ساعة بالسيارة شمال غربى أم درمان.

- حسنا.. ولكن ألا تتفق معى أن إمساك الناس بهذه الصورة المذلة، والقسوة التى يمارسها العساكر مع من يقع فى طريقهم من الشباب، ومعاملتهم بتلك الطريقة العدائية والتى شاهدناها الآن إهانة لكرامة المواطن .. أين منظمات حقوق الإنسان؟ وما هو دور الإعلام فى التصدى لمثل هذه الأفعال؟ وأين العدالة التى يتشدق بها المسؤولون. المعسكرات تفيض بالنظاميين والطلاب وكثير من المحسوبين على النظام فماذا يريدون

من الشباب الذي يقوم أغلبهم بمساعدة أسرهم بعد أن ضاق الحال بالكل.

– أنا لا أفهم فى السياسة.. ولا أحب الخوض فى أوحالها.. ولكن ماذا تريد من الناس أن يفعلوا؟ هل أنت شيوعى؟

– أنا لست شيوعيًا.. ولم أتحدث فى السياسة، أنا مواطن، وهذى بلادى، أحس. وغيرى كثر. بالظلم وأريد من الناس أن يستنكروا ويرفضوا وأن يقولوا لا، حتى يعلم الذين ظلموا أن الناس قد ملت سياستهم التى ضيقوا بها الخناق على الشعب.

– البلاد فى حالة حرب، ونصيحتى أن تصمت، فإن سمعوك تتحدث بهذه الطريقة فسيرموك بالعمالة والخيانة، وعندها ستذهب إلى السجن بدلا من معسكر التدريب.

– الحرب التى وقودها أنا وأنت وهؤلاء المطحونون.. السجن أحب إلى من الذهاب إلى الجنوب والدخول فى أتون حرب لست مقتنعًا بجدواها.

– ومن قال لك أنك ستذهب إلى الجنوب؟..

– كل الذين تمت عسكرتهم بهذه الكيفية رحلوهم إلى هناك!!

– ماذا نفعل؟ يجب أن لا نهرب من الواقع.. ذهابنا إلى المعسكر أصبح حقيقة لا مفر منها، رضينا بذلك أم أبينا ويجب أن نخضع لهذه الحقيقة.

– ولماذا نسكت، وحتى متى؟ يجب أن يصل صوت الأغلبية لولى الأمر، لقد فاض الكيل، وبلغ السيل الزبى وأصبح من العسير أن يحتمل

الناس مزيدًا من الظلم.

سمع واحد من العساكر الذين يقفون بجانب الباب تحسبا لأى طارئ سمع طرفًا من الحوار الذى دار بين أشرف وجاره، فصاح متسائلا: عن أى ظلم تتحدث يا «مستجد«؟.

وجدها أشرف سانحة فصاح بانفعال: سعادتك للكثير ممن قبضتم عليهم ظروف قاهرة تحول بينهم وبين دخولهم الجيش.

- بيننا عالم اجتماع، قالها العسكرى بسخرية، ثم تابع فى ازدراء: ومن الذى خول لك أن تتكلم باسم هؤلاء؟..

- أجابه أشرف بسؤال: وما هو القانون الذى يخول لكم أن تقبضوا على الناس هكذا دون النظر فى أحوالهم؟ .

بوغت العسكرى بإجابة أشرف فقال بلهجة آمرة: ولا كلمة.

لم يجد أشرف بدًا من السكوت، فصمت وهو يكظم غيظه، ونظر من خلال النافذة إذ انتبه لنسمة عليلة داعبت صفحة وجهه، فوجد أنهم قد وصلوا كوبرى أم درمان، راقه منظر النيلين فى نقطة التقائهما وهما يتعانقان فى ألفة ومحبة حتى امتزجت روحيهما فصارا جزءًا واحدا بعد رحلة مضنية من الشوق قطعا فيها البطاح والفيافى ليلتحما فى نقطة التقاء تعانقا فيها عناقا أبديا، فرسما لوحة فنية آسرة يضج فيها السحر والجمال.

لم يُنس جمال ذلك المنظر أشرف زوجته والحالة التى تركها عليها، فطفق يفكر فى طريقة يتخلص بها من هذا الكابوس الذى داهمه من حيث لا يحتسب، فسبح غارقا فى أفكاره إلى أن نبهه جاره قائلا: هيا يا

صديقى.. لقد وصلنا.

***

لنترك أشرف مع ذكرياته، ولنذهب فى زيارة خاطفة إلى المستشفى الذى ترقد فى أحد عنابره زوجة بطل قصتنا هذى لنرى كيف أمضت بخيتة تلك الساعات العصيبة مع ابنتها حنان.

نظرت بخيتة بإشفاق إلى ابنتها وهى تحتضن حفيدها، ثم قالت بيأس: لقد تأخر أشرف كثيرا.. وأردفت فى وجل: أرجو أن لا يكون جرى له مكروها.

أجابتها حنان بصوت متحشرج كأنها تعانى سكرات الموت: ربما لم يجد الدواء .. ومن المحتمل أن يكون قد ذهب لشرائه خارج المستشفى..

– لكنه تأخر أكثر من اللازم، فقد مرت أكثر من ساعتين على ذهابه.. فليس من المعقول أن يتأخر كل هذه المدة إلا أن يكون جرى... قطعت بخية حديثها فجأة، فقد تذكرت أن ابنتها ليس فى وضع يسمح لها بتقبل ما كانت تنوى قوله، فندّت عنها تنهيدة طويلة كادت أن تخرج معها روحها، فابنتها عانت ما عانت من آلام المخاض الذى لازمها ليومين إذ تعسر خروج الجنين بطريقة طبيعية، مما دعا أشرف إلى العمل بنصيحة القابلة، والذهاب بزوجته إلى الخرطوم حيث الرعاية الطبية أحسن من تلك التى بمستشفاهم الريفى والذى تقتصر خدماته على بعض الأمراض الخفيفة.

نزولا عند رقبة القابلة وخوفا وإشفاقا على حنان قرر أشرف أن يسافر

بزوجته إلى الخرطوم، فتحرك ركبهم فى الهزيع الأخير من الليل متوجهًا إلى الخرطوم التى وصلوها مع بزوغ الفجر، وبمجرد دخولهم المستشفى ذهبوا إلى الطبيب المناوب مباشرة.

عاين الطبيب حنان التى كانت تتألم فى صمت وبعد الكشف عليها قرر أن تُجرى لها عملية قيصرية مستعجلة.

وبعد التجهيزات الروتينية التى تمت على جناح السرعة، أدخلت حنان وهى ترقد على نقالة إلى غرفة العمليات، وأجريت لها العملية وأطلق مولودها الذكر صرخته الأولى مع شروق شمس ذلك اليوم من أيام يوليو الخريفية.

خرجت حنان من غرفة العمليات وهى تعانى من نزيف حاد، باءت كل محاولات الأطباء لإيقافه بالفشل، وهاهى الآن ممددة على سريرها فى شبه غيبوبة، وها هو اليأس والخوف يدبان فى قلب بخيتة، فوضعت الطفل بجانب أمه ثم خرجت وطفقت تذرع الطريق من باب العنبر إلى البوابة جيئة وذهابا علها ترى أثرًا لأشرف.

وبينما هى على ذلك الحال إذا بها تبصر على وأحمد أخى أشرف اللذين جاءا لزيارتهما، فنادت عليهما غير مصدقة، جاءاها وسلما عليها ثم سألاها عن حنان، فقصت عليهما ما جرى من أحداث فى هذا اليوم العصيب وختمت حديثها بأن نقلت لهما خوفها وقلقها على أشرف الذى اختفى بصورة مريبة كانت الأرض انشقت وابتلعته.

قال على مستنتجا وموجها حديثه لأحمد: من المؤكد أن أشرف لم يجد

الدواء داخل المستشفى فاضطر إلى جلبه من خارجها، ويبدو أنه وقع فى قبضة العساكر، فقد سمعت بأن هناك حملات تجوب شوارع العاصمة ليلا ونهارا ومن المؤكد أن إحداها صادفته عند خروجه من المستشفى.

أجاب على مستنكرا وقد حاول أن يدارى قلقه: كيف يمسكون الناس هكذا بصورة عشوائية دون النظر لظروفهم، وما هى المعايير التى يتم بها اختيار الضحايا. مسكين أشرف لم يتهنَّ بفرحة مولوده البكر..

قال أحمد فى قلق وهما يلجان غرفة حنان: أتمنى أن لا يكون أصاب أشرف مكروها.

دخلا على حنان بصحبة والدتها فوجدا أن حالتها أسوأ بكثير مما سمعاه عنها من أمها، لقد ساءت حالتها لدرجة أنها لم تحس بمقدمهم فقال على: يجب أن ننادى لها الطبيب فى الحال.

لم ينتظر أحمد علي حتى يتم كلامه فخرج مسرعا، وسأل عن مكتب الطبيب فدله عليه أحد المرضين فذهب مهرولا إلى أن وصل، نقر نقرات خفيفة على الباب فجاءه صوت الطبيب من خلف الباب أن تفضل بالدخول.

دخل على الطبيب وحياه ثم عرفه بنفسه ورجاه أن يأتى معه لحنان التى ساءت حالتها لدرجة أنها باتت لا تحس بمن حولها.

استجاب الطبيب فى الحال لطلب أحمد وجاءا معا، وصلا إلى حيث ترقد حنان واسترعى انتباهه جحوظ عينيها وصدرها الذى كان يعلو ويهبط بسرعة ملحوظة، فدنا منها وأمسك بجهاز الكشف ووضعه على

صدرها فوجد أن دقات قلبها تعمل بسرعة غير طبيعية، وهذا مؤشر خطير ينبئ بعاقبة وخيمة فرفع رأسه وقال باهتمام. يجب أن تحول إلى غرفة العناية الفائقة فورا، وأمر أحد الممرضين بالإسراع بالإتيان بنقالة، فهرع الممرض وغاب بضع دقائق قبل أن يعود وهو يدفع أمامه بنقالة. وُضعت حنان الغائبة عن الوعى عليها ومن ثم اتجهوا بها نحو غرفة العناية الفائقة.

وهناك تمددت حنان على السرير كأنها جثة هامدة.. كان مشهدًا قاسيًا أن ترى بخيتة ابنتها على تلك الحالة، فنظرت نظرة قلقة عبر النافذة الزجاجية وهى تتابع سريان المحلول الوريدى وهو ينساب عبر الأنبوب الذى أدخل فى خياشيم ابنتها. فراعها أن ترى وحيدتها على تلك الحالة، فلم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء وهى تدعو الله بقلب واجف أن يشفى ابنتها ويرد لها عافيتها وبعلها.

ثلاثة أيام بلياليها وحنان فى غيبوبتها تلك، وابنها يرقد بعيدا عنها فى إحدى حاضنات الأطفال.. ثلاثة أيام والأطباء عملوا كل ما فى وسعهم إلا أن حالة حنان ظلت كما هى، ثلاثة أيام وبخيتة لم تذق طعما للراحة فقد أصابها الفزع من أن تفقد ابنتها، ولو لا وجود على وأحمد ومواساتهما الدائمة لها لفقدت عقلها.

وفى صبيحة اليوم الرابع وبينما بخيتة تقف خارجا وتنظر لابنتها من خلال النافذة الزجاجية بقلب مزقه الألم ونفس تنازعتها الهواجس، إذا بها ترى حنان وقد بدأت تحرك رجليها وتحاول فتح عينيها اللتين ظلتا مغمضتين طيلة الأيام الفائتة.

بدأت حنان تتماثل للشفاء شيئا فشيئا ودبت الحياة فى جسدها من جديد بفضل الله، ثم بفضل الجهود الخرافية التى بذلها الأطباء، وكم كانت سعادة أمها بذلك، فقد عاشت أيامًا حالكة السواد وابنتها غائبة عن الدنيا، وما زاد من معاناتها غياب أشرف واختفائه فى ظروف غامضة، وعلى الرغم من تطمينات على وأحمد إلا أن الأفكار السوداء ما انفكت تسيطر على تفكيرها.

***

الطريق من توريت إلى جوبا يتعرج حينا، ويستقيم أحايين أخر، والسيارة تشق طريقها وسط الوحل، والحال هكذا ظل أشرف على جلسته تلك، مغمض العينين، ضاغطٌ بيده اليمنى على جرحه أعلى صدره بجانب كتفه الأيسر، فالجرح لا يزال ينزف رغم مرور الساعات، والألم أضحى على أشده والطريق الموحِل يتمدد كأنما لا نهاية له.

سأل السائق أشرف: كيف بدأت الأحداث فى خور إنجليز بين قواتنا وقوات المتمردين؟.

قطع السائق حبل أفكار أشرف بسؤاله، ففتح عينيه ببطء فوقعتا على ماسحتى الزجاج اللتين تعلوان وتهبطان فى رتابة كئيبة وهما تقومان بطرد وتجفيف مياه الأمطار.

قال له الهميم ود الضو فى حماس، وهما يقومان مع آخرين بتعبئة الجوالات بالتراب ومن ثم رصها على طول ضفة النهر لحجز المياه عن الدخول إلى القرية، المياه المتدفقة باندفاع جنونى والتى عجز مجرى

الأزرق العملاق عن احتوائها فى ذلك العام الذى انفتحت فيه أبواب السماء طوال أيام شهرى يوليو وأغسطس، فطمحت مهددة كل القرى الواقعة على ضفتيه بالغرق: هى معركتنا ضد الغرق، نكون أو لا نكون، فإما الصمود أو ستذهب ريح بيوتنا، إنه الطوفان وليس هناك عاصم من الماء غير سواعدنا هذه.. لقد تحدى هو وأقرانه عنفوان النيل الأزرق عند فيضانه فتصدوا له ومنعوه الخروج عن مساره.. لا يذكر أنه دخل معركة أيا كانت وخرج منها مهزوما، معركته ضد فساد أعضاء ما يسمى باتحاد المزارعين المسنود من حكومة الولاية، معاركه مع جماعة الأمن الاقتصادى فى مواسم حصاد القمح، معاركه ضد المصالح الذاتية لأفراد اللجنة الشعبية بالقرية والتى هو أحد أعضائها البارزين، لقد خاض فى حياته حروبا متعددة الجبهات، ولم يصب فيها بأذى، إذ كان يخوضها بعزيمة الواثق من النصر.. كانت حروبه كلها إما فى سبيل إحقاق الحق، أو مناصرة مظلوم.. حارب الفاقة بأن جعل كل وقته للعمل.. حاصر نفسه وألجمها وحارب شهواتها بابتعاده عن المعاصى، فإن ينسى فلن ينسى معركته ضد شهوته عندما راودته «النوّارة» الفتاة الجريئة اللعوب عن نفسه فى إنداية كلتوم الدلالية، تلك المعركة التى سنأتى على ذكرها فى حينه، يومها لم ينتصر فيها على نفسه وهواها فحسب، بل انتصر على الشيطان ذات نفسه.. لم يصب بأذى فى جميع حروبه التى خاضها، كان دائم السعادة بحلاوة الانتصار، وفى كل معركة خاضها كان يخرج منها وهو أكثر قوة وحبا لمعانى الحياة.. إذا ما من معركةٍ المُعتَرَك فيها كان

وجها من أوجه الخير دخلها فى حياته إلا وكسبها وكان المنتصر فيها، إلا هذه المعركة. معركة تحرير توريت. التى رمت به الأقدار وحدها فى أتونها، لقد خاضها منذ البداية وهو يشعر فى قرارة نفسه بالهزيمة، الهزيمة النفسية القاسية، إذ ظل يعانى مرارة تبكيت الضمير وهو يطلق نيران بندقيته تجاه ما يسمى مجازا بالعدو، فلربما أصابت إحدى رصاصاته ابن قريته وصديقه متوكل المعروف بين أهل القرية بـمتوكلوف الذى يقاتل فى صفوف التمرد منذ التحاقه بالتجمع الوطنى، فأردته قتيلا.. وأيا من تصبه رصاصاته فهو أخ له، وهو لا يود أن تقترف يداه هذه الجريمة التى سيحاسبه الله بها.. إنها معركة خاسرة، ليس فيها منتصر، لقد خسر نفسه وقناعاته وضميره مع انطلاق أول رصاصة من بندقيته، نعم لقد وضعته الأقدار فى «خانة» القاتل، تارة بزعم الدفاع عن الوطن والهوية وما إلى ذلك من العبارات التى ما فتئت ألسنة الساسة تلوك فى أحرفها، وتارة بحجة الدفاع عن العقيدة، والأخيرة هذه يدحضها وجود منتمين بالطرف الآخر لنفس عقيدته، إذًا فقد وجد نفسه فى موقف لا يحسد عليه، موقف جعله يصوب سلاحه ضد إخوة له يشاطرونه رقعة الوطن العريض، وتظللهم ذات السماء، ولأول مرة فى حياته يحس بطعم الهزيمة رغم بشريات النصر الكاذب التى لاحت فى الأفق، أن معركة توريت وكل المعارك التى دارت رحاها فى الجنوب، إنما هى معارك بلا معترك حقيقى.. إنه ضد الظلم بكل أشكاله، وليس هناك ظلم أشد من سلب الناس أرواحهم بغير وجه حق، ليس هنالك ما يقاتل من أجله، إنه والذين

يقاتلون معه وقود لمعارك يديرها الساسة من داخل مكاتبهم المكيفة لأجل الاستمرار فى الجلوس على كراسى الحكم، لا مصلحة للعوام من أمثاله فيها، والذين صبغوها بالدين وشعاراته العادلة إنما فعلوا ليوطدوا دعائم حكمهم على جماجم الأبرياء.

أجاب باقتضاب: كبداية أى معركة..

- أعلم ذلك، ولكن قصدت معرفة بعض التفاصيل، فالمعركة مصيرية، والحكومة راهنت على تحرير المدينة من أيدى الخونة والعملاء.. وحتما النصر سيكون حليف قواتنا الباسلة.. وسنطرد أعداء الله والوطن من كل شبر من أرض جنوبنا الحبيب، قال السائق ذلك بطريقة خطابية وهو يضغط بقدمه على دواسة الوقود، ثم أردف بحماس زائد وهو يمسك بعصاية الجير بوكس ويدفع بها إلى الخلف: لن يكون للذين يحاربون بالوكالة موطئ قدم على هذه الأرض الطيبة.

من حديثه وحماسه الزائد اتضح لأشرف أن السائق ممن يعتقدون أن كل من حمل السلاح لقضية آمن بها وإن كان على حق. أو من خالفهم الرأى وإن كان على صواب إنما هو خائن وعميل ومرتزق، فهو مثله مثل الملايين الذين تشكلت آراؤهم بما تبثه آلة النظام الإعلامية الضخمة التى ظلت تعزف على وتر الدين والوطنية، وترمى كل من خالف أو عارض النظام بالعمالة والارتزاق، ففضل السكوت على الانزلاق فى حديث لا طائل من ورائه.

تحدث أحد الجنديين اللذين يجلسان بالخلف واسمه خالد، وكان ممن

تدربوا مع أشرف وأحد أفراد مجموعته الإحدى عشرة والذين شارك أغلبهم فى معركة تحرير توريت، تحدث خالد قائلًا: منذ ثلاث ليال وقواتنا تحاول اقتحام المدينة من الجهة الشمالية الشرقية، وقد تكبدنا فى ذلك كثيرًا من المشاق واستشهد منا الكثير وجُرح العشرات وقد وجدنا مقاومة عنيفة من جيش العدو إلا أنهم بدأوا فى الانسحاب بعد الضربات الموجعة التى تلقوها من سلاحنا الجوى الذى أجبرهم على التقهقر والفرار.. واليوم أو غدا ستكون المعركة الحاسمة.

استرجع أشرف شريط أحداث البارحة فالتفت موجها حديثه لخالد، وقال بتأثر وهو يتحسس جرحه: البارحة كانت ليلة ليلاء، كنا سرية من المشاة أوكلت لنا مهمة تمشيط الطريق، وفتح معبر ليسهل على قواتنا الدخول من الجهة الشمالية للمدينة، بعد أن حسمت معركة خور إنجليز لصالح القوات المسلحة، وتم ذلك عبر الوحل والطين، والأمطار تهطل على رؤوسنا بغزارة، فوقعنا فى كمين كان قد نصب فى طريقنا، ولولا استبسال الرفاق الذين دافعوا بضراوة لراح الكل ضحية ذلك الكمين، وعندما أحس جيش الحركة بعزيمة الرفاق فرت فلوله أمامنا بعد أن قُتل أربعة من الرفاق كان بينهم صديقى ورفيقنا صلاح هارون وأصيب منا الكثير غير أنها إصابات خفيفة لم تقف حائلا بينهم ومواصلة القتال.

- صلاح استشهد.. صاح خالد فى جزع، ثم سكت برهة قبل أن يزيد بنبرة حزينة: صلاح الذى كان يملأ الزمان والمكان.. صلاح بمرحه وظرفه الذى كان يخفف علينا به وعثاء التدريب.. لا حول ولا قوة إلا

بالله، صلاح الذى...؟ لم يستطع خالد إكمال حديثه فقد ضاع صوته فى حلقه وانخرط فى نوبة من البكاء.

أحس أشرف باختناق فاعتدل فى جلسته، ومد يده إلى المقبض البلاستيكى الذى يتحكم فى رفع وإنزال الزجاج، وأداره بعصبية فانحسر جزءٌ من الزجاج دخلت عبره موجه من الهواء البليل حملت معها شيئًا من الرزاز فملأ رئتيه ثم رجع إلى وضعيته التى كان عليها، مستندا بظهره على خلفية المقعد، ثم أطلق لخياله العنان وقد سرح من جديد مع شريط الذكريات.

كلما تكالبت على الإنسان المحن، وأحاطت به عاديات الأيام، واستوطن نفسه شيء من الحزن، جنح إلى الماضى يجتر الذكريات، فقد يكون فى استرجاعها بعض من السلوى، والماضى وأحداثه. جسيمة كانت. أو جميلة يحن إليها المرء ويستعيدها فى ذاكرته بنوع من الحنين والشجن، ومصرع صلاح أمام عينى أشرف ترك فى نفسه حزنا يكاد يقضى عليه لولا انشغاله بجرحه، فهو لن ينسى الأوقات الحلوة التى أمضياها معا منذ أن التقيا فى أول يوم من مجيئهما المعسكر، فقد كونا ثنائية مرحة أحبها كل أبناء الدفعة، إذ إنهما لم يفترقا طوال فترة وجودهما بالمعسكر.. كانا كتوأم سيامى، لا تراهما إلا معًا، واليوم وقد ودع رفيقه وصديقه صلاح فها هى مرارة الحاضر تدفع به إلى أن يستعيد ذكرياته الحلوة مع رفيقه الذى رحل، رحل صلاح دون أن يلتقى أمه التى كانت تنتظر عودته من غربته التى امتدت لسنوات، رحل قبل أن يجد إجابة على أسئلة طالما ظلت تلح على

كل من ساقته خطى الأقدار إلى تلك الحرب اللعينة: علام يتقاتل أبناء الوطن؟ وعمّ يبحث طرفا النزاع، ولمصلحة من هذا العناد الذى أهلك الحرث والنسل طوال خمسة عقود من الزمان؟ ودع صلاح الدنيا وفاضت روحه الجميلة المرحة برصاصة أرخص من التراب الذى كان يسير عليه، مات كما مات أبوه من قبل برصاصات الجبهة الوطنية فى غزوتها الشهيرة للخرطوم، وكما مات جده الرابع ذو النورين فى معركة كررى إبان عهد الخليفة عبد الله ود تورشين، طبعا مع أخذنا فى الاعتبار؛ الفارق الكبير فى الأهداف بين معركة توريت، ومغامرة الجبهة الوطنية، وبين معركة كررى التى خاضها الأجداد ذودًا عن حياض الوطن.. مات صلاح كما مات أبواه، فلكأنما كتب على هذه العائلة أن تقدم أرواحها قربانًا لوطن كتب على جبينه يائس من نعمة الاستقرار.

لماذا يذهب الطيبون الذين يضعون بصماتهم على شُغُفِ قلوبنا ويستعجلون الرحيل؟، لماذا يتركوننا نتنكب طرقا كانوا قد مهدوها لنا بحكمتهم وبسماحتهم وطيب فعالهم، ففى صباه وقبل بلوغه سن الرشد بقليل فجع برحيل جدته السرة بت الرفاعى التى تشكلت على يديها معالم شخصيته من خلق، وأدب، وكرم، وإيثار، كما تشكل عليها أيضا نمط حياته الذى استمده من نمط حياتها التى أصقلتها التجارب خلال سنين عمرها الطويل.. كانت مثله الأعلى فى كل شئونه.. حبها للآخرين وعفويتها وحكمتها وحنكتها التى كانت تدير بها أزمات شقاوة طفولته، فكم دفعت عنه عقوبة تربصه بها والده جراء الشكاوى الكثيرة التى تأتيه

من آباء أقرانه، وكم ذا دافعت عن أفعاله الطائشة، لقد تعلم منها الصدق والصبر والثبات على المبادئ.. صحيح أن الموت كتاب مؤجل وأن ليس هناك نفس ستنتزع منها الروح إلا بإذن بارئها، غير أن من نحبهم دائمًا ما يتعجلون الرحيل، فهل هم فعلا كذلك، أو أن حبنا لهم وفداحة مصابنا فيهم تجعلنا نصدق تصوارتنا فى أنهم ذهبوا على عجل؟ أن حزنه وألمه من مصابه فى صديقه الذى أحبه، وموته أمام عينيه يكادان يلحقانه به لولا إيمانه بقضاء الله وقدره.

معسكر فتاشة..

انتفض أشرف كمن مسه تيار كهربائى عندما سمع جاره يقول ها قد وصلنا المعسكر، فهو وإلى هذه اللحظة لم يستطع استيعاب ما جرى، فعدم قناعته بعدم شرعية تجنيد الشباب بهذه الكيفية، علاوة على وضعه كأكبر إخوته،

وظروف والده المرضية، وفوق هذا وذاك وجود زوجته بالمستشفى وهى بين الحياة والموت، كل ذلك جعله فى حالة من الذهول لم يستطع معها تصديق ما جرى.

اجتازت السيارة البوابة الرئيسية وتوقفت وسط باحة المعسكر العريضة، وبدأ من بداخلها النزول بعد أن أمرهم العسكرى بذلك.

كان أشرف آخر المغادرين، فقد تردد كثيرا وحدثته نفسه أن يقاوم مهما كان الثمن ولكنه فى نهاية المطاف استمع إلى صوت العقل، فترجل والغضب والحنق يملآن صدره، فذهب لينتظم الصف مع زملائه الذين اصطفوا فى عدة «طوابير»، ثم وقف فى أقرب صف وجده أمامه.

اعتدل كما الآخرون وهو فى حيرة من أمره فتداعت الأسئلة على ذهنه، وظلت تلح عليه حتى شغلت تفكيره عن كل ما يجرى حوله فطفق

يحدث نفسه، ماذا أفعل لتجاوز هذه المحنة التى أوقعنى فيها سوء حظى؟ ويا ترى كيف هى حنان الآن شريكة حياته التى ترقد مهيضة الجناح؟ ومن الذى يقوم بمسئولية الأسرة فى غيابه؟ فأخواه لا يزالان يدرسان بالجامعة، ولا يستطيعان القيام بالأعباء التى كان يقوم بها هو.. فليت شعرى أى مصيبة تلك التى حلت على؟ هكذا ظل يطرح على نفسه مثل تلك الأسئلة إلى أن نبهه العسكرى وهو يسأله عن اسمه.

أملَى على العسكرى اسمه بالكامل ثم غرق من جديد فى خضم تفكيره حتى شعر برأسه يدور من فرط التفكير، وبينما هو على ذلك الحال انتبه فجأة لصياح العسكرى:

إيينتباه.. إلى اليمين دوور..

انتبه مرتبكا وبدأ يخطو إلى الأمام متذيلا الصف الذى بدأ أفراده يتحركون فى خطوات وئيدة نحو غرفة الطبيب لإجراء الكشف، وكان ذلك بعد محاضرة ألقيت على جمعهم تحت أشعة شمس الظهيرة الحارقة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر بقليل عندما رفع أحدهم عقيرته مناديًا: أشرف حامد عبد الكريم.

سمع أشرف اسمه وسرعان ما لبى النداء وسار مسرعا نحو مصدر الصوت فوجد أحد الجنود يحمل فى يده ورقة بجانب باب غرفة الطبيب، طلب من أشرف الانتظار ريثما يخرج من سبقه.. لم يطل انتظاره فقد خرج من كان ينتظر خروجه فسُمح له بالدخول فتقدم والأمل يحدوه فى أن لا يكون لائقا طبيا، فقد يكون هذا هو الأمر الوحيد الذى يمكن أن يؤدى

إلى خروجه من هذا المأزق، وإعفائه من أداء الخدمة العسكرية التى لم يتحسب لها أبدا فى يوم من الأيام.

دخل على الطبيب فوجده جالسًا خلف مكتبه فى بذلته الطبية، كان يقلب فى دفاتر أمامه، حدس أشرف أنه فى العقد السادس من عمره، دله على ذلك كثرة الشيب الذى يكسو فروة رأسه، والثلاثة خطوط الرفيعة التى توسطت جبينه العريض، كانت تبدو على وجهه سمات الوقار والجدية مما جعل أشرف يشعر بشىء من الرهبة، ألقى عليه بالتحية وهو يلقى عليه بنظراته التائهة.

رفع الطبيب بصره إلى أشرف وتفرس فيه قليلا قبل أن يرد عليه التحية، ثم سكت برهة قبل أن يسأل:

ما اسمك؟

- أشرف.. أشرف حامد عبد الكريم..

- عمرك..

- عمرى، مواليد 1972

- مهنتك..

- مزارع..

كان الطبيب يسأل ويقوم بتدوين ما يمليه عليه أشرف حتى وصل إلى آخر نقطة من أسئلته، وبعهدها طلب منه أن يستعد للكشف.

تفضل، استلقِ على تلك الطاولة، قالها الطبيب بنبرة جافة وهو يرفع نظارته عن أرنبة أنفه إلى أعلى جبينه، ثم حمل جهاز الكشف وهب واقفًا.

كانت هناك طاولة خشبية تمتد من الركن إلى الركن تقريبا، وُضعت بصورة مهملة بجانب أحد جدران الغرفة، تقدم أشرف نحوها ونفذ ما طُلب منه ثم جاءه الطبيب وبدأ فى إجراء الكشف الروتينى، لم تمضِ بضع دقائق حتى كان أشرف قد استلم نتيجته والتى جاءت بغير ما تشتهى نفسه، فكما أظهر الكشف فإن النتيجة برهنت على خلو جسده من أى مرض يحول بينه وبين انخراطه فى الجيش، وبذا يكون قد تبدد آخر أمل للخروج من المأزق الذى وجد نفسه فيه.

غادر غرفة الطبيب والألم يعتصر فؤاده، والهم يعصف بضلوعه بعد أن انقطع الخيط الوحيد الذى كان يعول عليه فى الخروج من هذه الورطة التى رمت بها الأقدار فى طريقه، خرج حاسر الرأس كأنه يحمل مشاكل العالم كله على عاتقه، ولسوء حظه صادفه فى طريقه أحد العساكر يحمل سوطا فضربه على ظهره وصاح فيه بازدراء: هيا يا مستجد الحق بزملائك.

اصطف القادمون الجدد فى عدة طوابير ووقف أمام هذه الطوابير ثلاثة من العساكر ذوى الملامح الغليظة، إذ بدت على وجوههم جدية مفتعلة، وهم يلقون واحدًا تلو الآخر بكلام غريب على آذان المجندين الجدد ويقومون بتكرار ممل لعبارات ومصطلحات عسكرية بدت للوهلة الأولى عسيرة الهضم لغالبية المستجدين إذ إنها لم تطرق مسامعهم من قبل، الأمر الذى جعل أشرف الذى لحق بـالطابور واصطف مع رفاقه يحس بالضيق، وهو يستمع إلى كيل الإهانات، ووابل الشتائم التى كان يمطرهم بها العساكر احتفاء وترحيبا.

زهاء الساعة أو يزيد ظل العساكر فى حديثم المكرور ذاك دون توقف إلى أن جاء الفرج حين أمروهم بالانصراف لحلاقة رؤوسهم، فوزعوا لكل واحد منهم شفرة حلاقة، على أن يقوم كل اثنان بالحلاقة لبعضهما.

***

سأل أشرف وهو يقبض بيده اليسرى على صدغى رفيقه صلاح الذى تعرف عليه للتو، وممسك بشفرة الحلاقة بيده اليمنى: كيف تم القبض عليك وأنت تقول إنك وصلت من السعودية بالأمس فقط؟

أجابه صلاح بنبرة لا تخلو من مرح: نعم وصلت بالأمس من السعودية، إلا أن «الجماعة» لم يمهلونى فقد تم اختطافى من الشارع وجيء بى إلى هنا و.. وقبل أن يتم حديثه قاطعه أشرف بنفاد صبر: أنا أتحدث بجدية، كيف وقعت فريسة بين أيدى هؤلاء.. ألم يكن معك جواز السفر؟

- تركته بمنزل أخى الذى استضافنى ليلة البارحة، فقد خرجت صباح اليوم أحمل أمانة حملنيها صديقى لإيصالها لأهله هنا فى الخرطوم وقد أوصلتها فعلًا، وكان فى نيتى أن أرجع إلى بيت أخى لأحمل حقائبى وأتوجه إلى أهلى بمدينة الأبيض، وفى طريق عودتى، وعند إحدى المحطات توقفت الحافلة فصعد على متنها عسكرى جامد القسمات وطلب من كل الشباب النزول فنزلت مع من نزل ودار بينى وبين العسكرى حوار انتهى بترحيلى إلى هنا.

- حسنا.. ألم تخبره أنك مقيم بالسعودية؟..

- بلى.. إلا أنه طلب ما يثبت ذلك. هذا. أو أذهب إلى تلك السيارة

بغير ما أى نقاش هكذا تحدث إلى العسكرى موصدًا أمامى كل أبواب الرجاء..

ضحك أشرف. ولعلها المرة الأولى التى يضحك فيها منذ ليلة البارحة . ثم قال وهو ينظر إلى صلاح الذى صار منظره أقرب إلى الأشكال الكاريكاتيرية، بعد أن تمت حلاقة النصف الأعلى من شعر رأسه: أتوقع أن يأتى إليك أخوك بجواز السفر ليفك أسرك ويريحك من هذا العناء.

- وأنا أتوقع ذلك.. ولكن ربما مر أسبوع أو أسبوعان قبل أن يعلم بوجودى فى هذا المعسكر، استطرد صلاح قائلًا: ولكنك لم تخبرنى عن نفسك.. من أى المناطق فى السودان، وماهى ملابسات مجيئك إلى هذا المعسكر؟.

- أنا من ولاية الجزيرة قالها أشرف وهو يمرر الشفرة على آخر شعيرات فى أسفل رأس صلاح، ثم حكى قصته منذ أن تحرك من قريته وحتى لحظة وقوفه هذه.

تأثر صلاح تأثرًا شديدًا بعد سماعه قصة أشرف فقال بحنق: ولِمَ لم تقاوم؟

- وما جدوى المقاومة؟ لقد حاولت عرض مشكلتى على أكثر من واحد ولكنهم لم يعيرونى اهتمامًا..

- ولماذا لم تعرضها على الضابط المسئول؟

- لم أجد فرصة.. وكما رأيت فإنهم لم يمهلونا، فبمجرد وصولنا أدرجت أسماؤنا فى سجلات المعسكر، وقبل أن نلتقط أنفاسنا أجري لنا

الكشف الطبى، وها نحن الآن نكمل ما تبقى لنا من إجراءات لنكون كما أرادوا لنا.

- على العموم، العسكرية ليست شر.. فالتدريب يُكسب المرء مهارات ما كان له أن يكتسبها فى حياته العادية، ويعود المرء على الصبر، فضلا عن تعلم كيفية الدفاع عن النفس.. قال صلاح ذلك وهو ينفض ما علق على ملابسه من شعر بعد أن صارت ناصيته «قرعاء» تماما.

- أوافقك الرأى، شرف الجندية لا يدانيه شرف، قالها أشرف وهو يقوم بتنظيف الشفرة ويرمى بها جانبا ثم أردف قائلا: ومن ينكر فضل العسكرية والعساكر على الوطن؟ فهم حماته ودرعه الذى تتكسر عليه نصال الأعداء، فقط لدى بعض التحفظات على عسكرة الناس بالصورة التى تمت معنا وتتم مع غيرنا من الشباب.

- هذه إرادة الحاكم ويجب أن نذعن، فالتبرم لن يجدى نفعا.. علينا أن نتكيف مع الواقع الذى ترسمه لنا أقدارنا.. اجلس يا أشرف فقد جاء دورك..

جلس أشرف وقد أسلم رأسه لصلاح ثم سرح قليلا محاولا تحليل شخيصة صلاح وسبر أغوارها، فهو برغم أنه عاد حديثا من دار هجرته إلا إنه لم يتذمر كبقية الشباب، ومن المؤكد أنه فى شوق لملاقاة أهله ومدينته وأصدقائه، فما الذى يجعله يجابه هذا الوضع الذى فرض عليه بكل هذا الرضاء؟ إنه لجد مستغرب..إنه يذكره بصديقه الهميم ود الضو، مرحه، لا مبالاته، سخريته، تساءل بينه وبين نفسه ترى ماهو موقف صاحبه

الهميم ود الضو حين يعلم بقصة تجنيده هذه؟ وفى ذات اللحظة تذكر صديقهما متوكلوف الذى انقطعت أخباره منذ أواسط التسعينيات عندما غادر إلى أسمرا للالتحاق بقوى التجمع الوطنى.

قال أشرف وقد أحس بوخزة مؤلمة، وجزء من حافة الشفرة ينغرس فى رأسه: مهلك صلاح، إنك تجرحنى، وأردف: ولكن قل لى ما الذى يجعلك راض بهذه الصورة؟.. إنك تحيرنى.

- لا حيرة ولا يحزنون، رد صلاح وهو يقوم بتجفيف بقعة الدم الصغيرة التى خلفها الجرح واستطرد قائلا: سمه امتثالا لما تفرضه الظروف.. ماذا عساى أن أفعل؟.. فلا أحد يستطيع رد القضاء.

- سكت أشرف هنيهة قبل أن يقول: ولكنك لم تتذمر كما الآخرون..

- عموما لا أحاول التذمر مهما ساءت الأمور، أتكيف بسرعة مع أى وضع تفرضه على الظروف، ولا تنسى أن وجودى خارج أرض الوطن له دور كبير فى تعودى على مثل هذه الحالات، فالغربة تعود الإنسان على الصبر، فهى أشد مرارة مما نحن فيه الآن.. جبال من الألم نحتملها ونحن بعيدون عن أرض الوطن.. لذا كل شيء عداها لا يعدو أن يكون نزهة..

- أو تسمى وجودنا هنا نزهة؟.. سامحك الله، قالها أشرف هازئا وقد بدت على فمه ابتسامة ساخرة.

- مقارنة بجحيم الغربة نحن هنا فى نزهة خلوية.. يبدو أنك لم تهاجر من قبل.

- لم أعتد على البعد عن ديار عشيرتى.. أكثر فترة غبت فيها عن أهلى

كانت أيام امتحان الشهادة الثانوية، حينها غبت شهرًا كاملًا إذ كنت أسكن داخلية الطلبة، وطلب المعلمون منا وقتها أن لا نغادر الداخلية أيام العطلات حتى يتسنى لهم أن يراجعوا معنا ما يحتاج إلى مراجعة من مقرر المنهج.

- وأيام الجامعة ألم تغادر فيها قريتك؟

كان من المبرزين هو وصديقاه متوكل عثمان متوكلوف، والهميم ود الضو، ولم يخرج ثلاثتهم عن الخمسة الأوائل فى جميع مراحلهم الدراسية، اكتفى هو والهميم ود الضو بالمرحلة الثانوية وهجرا قاعات الدراسة، فضل الهميم العمل مع أبيه فى الجزارة، بينما واصل متوكل تعليمه حتى تخرج فى كلية القانون، كانت رغبة أشرف وأمنيته التى صاحبته منذ بواكير الصبا هى دراسة الزراعة، غذى رغبته تلك التصاقه بوالده، ومساعدته الدائمة له فى «حواشته» ذات الخمسة أفدنه قبل أن يجور عليها قانون الملكية الجديد وتتقلص بموجبه إلى أربعة فدادين فقط، كانت تعجبه شخصية الباش مفتش حسان الطيب بأناقته وعربته اللاندروفر الرمادية، وحديثه العلمى الشائق الذى لم يكن يفهم منه حرفا واحدا، سأله ذات حصاد وهو يرفع نظارته الطبية السميكة عن أرنبة أنفه: ماذا ترغب أن تكون حينما تغدو كبيرا؟ كان عمر أشرف حينها أحد عشر عاما، أجاب بشقاوة ماكرة: أرغب فى أن أكون مثلك، واستطرد باسما وهو يشير إلى العربة اللاندروفر بإعجاب، أريد أن أكون مفتشا زراعيا لأركب مثل عربتك هذه.. كان يرى المزارعون يتحدثون إلى حسان

ورؤوسهم إلى الأرض، ويعملون بتوجيهاته ونصائحه ويلتزمون بكل ما يطلبه منهم، فتكونت لديه رغبة جامحة فى أن يصبح مفتشا زراعيا حتى يكون مثل حسان الطيب وكل المفتشين الذين عرفهم فى أيام طفولته، كبرت معه رغبته وتبدلت مفاهيمه من مجرد إعجاب بشخصية المفتش ونظارته وعربته إلى رغبة ملحة فى معرفة العلوم الزراعية، والأسرار التى ينطوى عليها عالم النبات.

- لم يتسنَ لى أن أدخل أيًا من الجامعات، قالها بنبرة ملؤها الحسرة والأسى، واستطرد فى ألم: مرض أبى ولزم السرير، فقمت مقامه، وصرت قيما لأسرتى لا سيما وإخوتى حينها كانوا صغارا.

- نعيما سيد أشرف.. ها أنت تخطو أولى خطواتك للانضمام لقوات الشعب المسلحة السودانية، وغدا سنراك فارسا لا يشق له غبار يجندل الأعداء يمنة ويسرة فى ميادين القتال، قالها صلاح بمرحه المعهود والذى لمسه أشرف منذ لحظة تعرفه عليه.

- شكرا صلاح.. سعدت جدا بمعرفتك وأرجو أن تدوم العلاقة بيننا.

- أرجو أن تحاول التكيف مع الواقع الجديد حتى تستطيع التغلب على ما تعانيه من هم وحزن.

- ليتنى أستطيع ذلك.. قالها أشرف بنبرة يائسة ثم انصرف مستأذنا صاحبه، وتوجه إلى المستودع لصرف ملابس التدريب.

- لنا لقاء.. بل لقاءات ولقاءات، قالها صلاح ضاحكًا ثم انصرف

هو الآخر.

يقع المعسكر الذى سيتدرب فيه صاحبنا فى المنطقة الصحراوية شمال غرب مدينة أم درمان، ويحتل مساحة شاسعة أهلته لأن يكون المعسكر رقم واحد فى استقبال المجندين الجدد سواء كانوا من النظاميين، أو طلاب الشهادة الثانوية، أو أولئك الذين يتم القبض عليهم من الشوارع والأسواق والأماكن العامة ويجبرون على دخول الجيش عنوة ويساقون له بصورة تعسفية، بحجة الذود عن الدين والعرض، فالبلاد مستهدفة من قبل دول البغى والاستكبار، أو كما كان يحلو لولاة الأمر ترديده على الدوام، لذا كان المعسكر يفيض على سعته بالمجندين من الشباب الذين جيء بهم من مختلف الأعمار، ولما كانت المبانى التى شُيدت قبل عقود خلت قد ضاقت مساحتها على الأعداد الكبيرة من المجندين الذين تزايدت أعدادهم بصورة لم يسبق لها مثيل منذ إعلان الجهاد على أبناء الوطن الواحد، كان لا بد من التفكير فى إيجاد حلول سريعة وغير مكلفة لاستيعاب أكبر كمية من المستجدين، فنُصبت الخيام فى وسط وأطراف المعسكر، علاوة على ضم بعض الثكنات التى كان يسكنها الجنود العاملون بالمعسكر.

فى حياة المرء. أى مرء. لحظات فاصلة قد تغير مجرى حياته تغييرا جوهريا، فيتبدل واقعه من النقيض إلى النقيض، وتتحول حياته من الأحسن إلى الأسوأ أو العكس، فتتأثر بذلك مفاهيمه وأفكاره ورؤاه وأحاسيسه.. فالحياة مهما تبرجت بمفاتنها، أو تزينت بمباهجها لابد

أن يعكر صفوها شيء من حدثان الدهر.. والنوائب عادة ما تسير مع الإنسان حذوًا بحذو، فالسعادة والشقاء، والفرح والحزن، والطمأنينة والخوف، والسكينة والألم، والراحة والنصب، كلها أضداد يأخذ منها كل شخص نصيبه بالقدر الذى تفرضه عليه المشيئة والأقدار.. والحياة فى عمومها لا تستقر على حال، فأشرف الذى نشأ وترعرع فى جو الريف الوادع، وينام ويصحو على روعته وهدوئه وسلامه وطمأنينته، ما كان يتخيل أن حياته التى ألفها على بساطتها سيغيرها طارئ، وما تخيل يومًا نفسه داخل الملابس العسكرية، فهو لم يسمع فى حياته صوت طلق نارى إلا عبر البرامج التى يبثها التلفزيون صورًا حية من سوح المعارك التى يدور رحاها فى الجنوب زهاء العقدين من الزمان.. فهو المزارع البسيط ابن المزارع الذى يحيا حياة الريف بكل تفاصيلها البسيطة، ويمضى جل يومه فى حقله مع الخضرة وجداول الماء الرقراقة التى تنساب فى دعة لتروى شبق الأرض الظمأى، فتنبت خيرا ونماء وتزدهى خضرة وبهاء.

مالت الشمس إلى المغيب وتلاشت الظلال، وتأبط الأفق الحزين كآبة رسمت معالمها بشاعة الشفق الدامى، وأشرف الحزين الذى كان يمتع ناظريه بلوحة الغروب عندما يحتضن الأفق الشمس مقبلا جبينها فى شوق ولهفة، وهو بمزرعته وسط الخضرة ورقة النسيم، ها هو ينظر إلى الغروب بمنظار أسود حجب عنه روعة مشهد الكثبان الذهبية وهى تبتلع قرص الشمس كوحش جائع يلتهم فريسته.

حمل أشرف ملابسه الجديدة وتوجه نحو مكان إقامته وقد أحس بألم

فى رأسه وإعياء لم يحسه من قبل، فهو ومنذ ليلة البارحة لم يذق طعمًا للراحة فوصل إلى هناك ووجد صلاح قد سبقه، وضع بطانيته التى حملت رقمه، ثم فرشها على الأرض ووضع عليها ملابسه الجديدة ثم ذهب بصحبة رفيقه إلى مكان الوضوء، توضآ وصليا المغرب جماعة ومن ثم ذهبا وتوجها إلى حيث جلست المجوعة التى سيتناولون معها الطعام كما رُتب لهما، كانت المجموعة قد تحلقت فى حلقة دائرية، وبدأ أفرادها فى برنامج التعارف، ذكر كل واحد منهم اسمه وبلدته، وجاء الدور على أشرف، فعرف نفسه وهو يمسك برأسه إذِ اشتد به الألم، لم ينتظر حتى يتعرف على بقية الرفاق، فنهض وذهب إلى العنبر بعد أن اعتذر عن مواصلة الحديث.

والعنبر الذى سيضم أشرف ورفيقه صلاح هو فى الحقيقة عبارة عن خيمة واسعة نصبت قريبا من حدود المعسكر الشمالية فى مساحة تزيد على المائة متر.. وصل أشرف إلى هناك ثم استلقى على ظهره وقد أحس بأن الصداع قد ازداد حدة فاغمض عينيه من شدة الألم ووضع يده على جبينه وبقى على هذه الحال إلى أن عاد رفيقه صلاح.

هيا يا أشرف قم لتناول العشاء.. قالها صلاح، ثم وضع الصحن على الأرض..

- ليس الآن، أشعر بأن رأسى سينفجر من شدة الألم، لا أستطيع أن أتناول شيئًا الآن..

- سأذهب إلى المتجر لأجلب لك مسكن.

خرج صلاح مسرعا حاثا خطاه، وتوجه صوب الدكان الذى يقع فى

ركن قصى من أركان المعسكر وفى بضع دقائق كان هناك فطلب من البائع أسبرين أو أيًا من الأقراص المسكنة فناوله قرصين من «البنادول» أخذها ثم قفل راجعا إلى حيث يرقد أشرف.

وصل عند أشرف الذى كان يتألم بصمت، ووجد معه اثنان آخران جلسا بجانبه، فناوله البنادول مع قليل من الماء.

نهض أشرف متثاقلا، وأخذ البنادول وألقى به فى فمه وأتبعه بجرعة من الماء ثم استلقى مرة ثانية وقد بدت على وجهه الشاحب آثار الإعياء، والإرهاق.

لا يعلم أشرف كم مر عليه من الوقت وهو نائم، فقد هب من نومه على صافرة النداء عند التاسعة مساء وهو موعد الطابور المسائى، فأفاق والعرق يتصبب من جسمه كله تقريبا، وأحس أن الألم قد سكن قليلا، ففتح عينيه ووجد صلاح بجانبه فهب واقفا ومن ثم تحرك إلى خارج الخيمة بصحبة صلاح ثم توجها إلى حيث اصطف المجندون.

كانت هذه أول ليلة فى المعسكر لأشرف وهى بداية لليالى أخر سيمضيها هنا، فشعر بتعاسة شديدة وهو يفكر فى ذلك، فقال لصلاح: الديك فكرة عن فترة التدريب؟ رد صلاح ضاحكا شهر أو خمسة وأربعون يوما لمثل حالاتنا هذه، واستطرد: أما فى الحالات الطبيعية فلا تقل عن الثلاثة أشهر.

- إن لم تكن إلا ليلتنا هذى لكفانا.. همس بها أشرف فى ضيق وتبرم وهو ينتظم الصف الذى انتصب أفراده فى خط مستقيم انتظارا لمحاضرة

«التعلمجى» التى لا توجد فيها ولا كلمة واحدة ذات فائدة.

أو تدرون لماذا أنتم هنا؟ لا أريد إجابة من أحد.. أنا هنا الذى يسأل ويجيب.. قالها المعلم، وهو المتعارف عليه فى عرف العسكرية بـ«التعلمجى» ومنذ الآن سندعوه بتلك الكنية، قالها وهو يتلاعب بعصاة كان يحملها فى يده. أنتم هنا لأنكم أصبحتم عالة على المجتمع يا رعاع..

صفا.. اينتباه.

إلى اليمين در.

صفا اينتباه.

إلى الشمال در.

انتباه.. أو تدرون؟ جزمتى هذه خير منكم يا أشباه البشر!.. استمر التعلمجى فى الاستخفاف وإلقاء مثل هذا الكلام والأسئلة السخيفة التى لا تمت إلى الواقع بأى صلة، ويجاوب إجابات أكثر سخافة.

ما يقارب الثلاث ساعات تبادل فيها التعلمجية الأدوار بذات الكلام «الفارغ» مع قليل من «البيادة». وهى حركات رياضية ذات طابع عسكرى محض. طوال هذه الفترة والتى عدها شهورًا كان أشرف يفكر فى حنان وحالتها التى تركها عليها. وما إن كان أحد من إخوته قد وفد إليها أم لا، لم يكف عن التفكير إلا حينما سمع كلمة انصراف حال نطق بها التعلمجى عند منتصف الليل.

انصرف برفقة صلاح وعادا إلى مكان نومهما وهو يحس بأن ساقيه لا تستطيعان حمله، وما إن وصل إلى فراشه حتى ارتمى عليه فى تهالك، ولم تمر

دقيقة أو دقيقتان حتى راح فى سبات عميق.

نهض على صوت الصافرة عند الخامسة فجرا وكانت أمامه ساعة من الزمان على موعد الطابور الصباحى فذهب وأخذ حماما دافئا أعاد إليه نشاطه ومن ثم توجه إلى المسجد ليؤدى صلاة الفجر.

خرج من المسجد بعد أن صلى مع الجماعة ووجد صلاح بانتظاره فسارا إلى حيث يجتمع الرفاق بجانب البوفيه لشرب الشاى.

رشف رشفة من الشاى ولكنه لم يستسغ طعمه إلا أنه كان مضطرا إلى شربه فقد كان جائعا إذ بات ليلته دون أن يتناول شيئًا من الطعام فقال لصلاح: لقد فارقنا حياة الدعة، فالأكل هنا جشب لا يستساغ، والشرب من مياه تلك الصهاريج، والتى تكون شديدة الحرارة عند منتصف النهار.

- سنعتاد على ذلك فى غضون يومين أو ثلاثة عليك بالصبر، قالها صلاح وهو يرشف آخر رشفة من كوبه.

- إلى أن يحين ذلك علينا أن نتحلى بالصبر، وما أمر الصبر على امرئ فى مثل حال أشرف.

حان موعد الطابور الصباحى والذى «يُرفعُ فيه التمام» فيتم حصر المتدربين وبعد أن يتم ذلك يقومون بتأدية الحركات الرياضية «البيادة» ومن ثم القيام برياضة الجرى التى لا تقل مسافتها عن خمسة أو ستة كيلومترات ذهابا وإيابا.

الساعة السادسة صباحًا.. الثالث والعشرون من يوليو 2002، صافرة النداء يملأ زعيقها المكان، فيتردد صداها داخل أسوار المعسكر

الكبير.. خرج عند سماعها المتدربون من عنابرهم زرافات ووحدانا فى زيهم البيجى الموحد، والذى اختيرت قماشته من البفتة، وزى التدريب عادة ما يكون عبارة عن قميص قصير الأكمام حيك بدون ياقات ويتدلى إلى ما فوق الركبة بقليل، وسروال من ذات القماش واللون.

جاء جنود المستقبل من كل أرجاء المعسكر بعضهم جاء نشيطًا، وبعضهم تبدو عليه سور الإرهاق والضجر.. جاءت جموعهم وشغلت مساحة كبيرة، ولم تمض دقائق حتى اعتدلت الصفوف فى خطوط مستقيمة استعدادًا لتلقى إشارة المعلم بالبدء فى برنامج التدريب.

نظر أشرف إلى صلاح فى زيه الجديد الذى زاده وسامة على وسامة، فصلاح فارع الطول، مفتول عضلات اليدين تبدو على وجهه آيات الطيبة والنبل والأصالة، فقال أشرف مداعبا رفيقه: تبدو وسيما فى زيك الجديد، رد صلاح ضاحكا: وماذا تفيد الوسامة فى مثل حالنا هذى.. غدا ستذوى حرارة الشمس هذه النضارة التى اكتسبها الجسم من حياة الدعة فى السعودية.

اييينتباه.

انتبه الجميع لهذا الصوت الذى خبروه جيدا.. فبدأ التعلمجى حديثه كالعادة بإلقاء بعض الأسئلة والإجابة عليها بنفسه، وازدراء المستجدين والاستخفاف بهم، ثم بعد أن شبع سخرية منهم، أمرهم بالركض بعد أن حدد لهم الوجهة والمسافة التى سيركضونها.

انطلقت الصفوف وهى تردد فى «الجلالات» والتى جاءت مفرداتها

من أدب البيئة العسكرية فهى بمثابة الحداء الذى يرفد المجندين بالدافع المعنوى، فتحفزهم على الجرى، وتمدهم بالقوة فلا يشعرون بالتعب أو الملل عند ترديدها، منها الطريف المضحك، ومنها الجاد الذى يدعو لدك العدو، ومنها الذى يخدش الحياء، وكلها بمختلف كلماتها ومعانيها وألحانها إنما تمنح قائليها دافعا قويا لاجتياز المسافات الطويلة دون أن يشعروا بالتعب.

***

أبرقت السماء وأرعدت ثم أمطرت كما لم تمطر من قبل، قال أشرف لصلاح الذى كان يجلس قبالته والريح تزأر بالخارج حتى لتكاد تقتلع خيمتهم: منذ عدة أعوام لم نر السماء تمطر كما اليوم، رد صلاح مع ومضة البرق الخاطفة التى هزمت حلكة الظلام حتى أبانت بياض أسنانه الناصع: تقريبا منذ العام ثمانى وثمانين ما رأيت أمطارا كهذه، كنت حينها طالبا بالصف الأول فى مدرسة خور طقت الثانوية، عندما كانت الحياة لا تزال بخيرها، وكنا لما نزل فى ريعان الشباب، ولم تكن الأمور بهذا التدهور المريع الذى طال كل شيء فى البلاد.. سكت صلاح برهة كأنما تذكر شيئا فتنهد ثم استطرد: ولعلك لا تعلم أن موسم الأمطار الذى تتحول فيه ربوع كردفان إلى جنة خضراء هو أكثر المواسم التى أشتاقها عندما أرحل بعيدا عن الوطن، فهو أكثر سحرا من ربيع أوروبا وخريف أمريكا.

– ليس أكثر سحرا من «خريف» الجزيرة، قالها أشرف مع دوى هائل لرعدة اهتزت لها الأرض من تحتهم.

فترة صمت سادت لعدة ثوانٍ قبل أن يرد صلاح بعبارات فلسفية: أعتقد أن السحر ليس فى المكان، السحر فى شغف المرء بالمكان، ألا ترى أن قاطنى الصحارى كيف يعشقون صحاريهم ويهيمون بها؟ وليس أدل على ذلك من ارتباطهم الوثيق برمالها والتغنى بجمالها.. ولا أعتقد أن من يسكنون الجليد يقبلون بأن يستبدلوا وطنهم الجليدى بأى موطن آخر.. إذن يا صاحبى السحر فى نفوسنا وشغفها بالمكان الذى ارتبطت به، وليس فى المكان نفسه.

ـ كلام إلى حد ما لا يخلو من منطق، وفيه شيء من الفلسفة.. أظنك مطلعا جيدا على الفلسفة.. لماذا لم تواصل تعليمك؟ قالها أشرف وهو يمد يده إلى كوب الماء الذى كان أمامه، تناوله وأخذ منه جرعة ثم أعاده مكانه وهو ينظر إلى صلاح الذى لمعت عيناه مع وميض البرق الخاطف.

– توفى والدى وأنا ابن أربعة أعوام، كان ذلك فى العام ست وسبعين وتسعمائة وألف عندما قامت الجبهة الوطنية بالهجوم على الخرطوم بقصد إسقاط حكومة جعفر النميرى، فدخلت قواتها العاصمة فى أوائل يوليو من ذلك العام فضربت المنشآت العسكرية وأطلقت السلاح عشوائيا، دارت معارك عنيفة بينها وبين القوات المسلحة استمرت لثلاثة أيام، استشهد أبى الذى كان حينئذٍ عريفا بسلاح الصاعقة، صرنا يتامى لا عائل لنا أنا وإخوتى الثلاثة منذ ذلك الحين، اضطرت أمى للعمل فى وظيفة عامل نظافة فى مدرسة الحى، وبما أننى أوسط إخوتى اضطررت إلى إنهاء تعليمى من المرحلة الثانوية، حتى أساعدها فى توفير المصروف

اليومى الذى ازداد بعد وصول شقيقى الذى يكبرنى إلى المرحلة الجامعية، كان أخى من المبرزين فرأيت أن ليس من العدل أن يقطع تعليمه، اتفقنا أن يواصل هو وأتفرغ أنا لمساعدة الوالدة لا سيما وأننى تعلمت مهنة الميكانيكا مذ كنت صبيا، وكان ذلك فى الإجازات الصيفية .. واصل أخى تعليمه حتى تخرج فى كلية الهندسة والآن من كبار المهندسين فى وزارة الرى، واتجهت أنا للعمل فى ورشة «المعلم» وهى ورشة كبيرة لتصليح السيارات، مالكها يدعى آدم النور ويلقب بالمعلم، رجل لن يجود الزمان بمثله، فهو بارع فى مجاله، وعلى قدر عالٍ من الذكاء جذب الناس إلى ورشته بحسن تعامله وأدبه الجم، ولا تكاد تجد أحدًا فى الأبيض لا يعرف المعلم وورشته التى تخرج فيها غالبية الميكانيكيين فى المدينة.

قال أشرف ضاحكًا: ومن هناك اكتسبت روح الدعابة والفكاهة..

- بالمناسبة أنا ممثل بارع، فكثيرا ما كانت تُسند إلى الأدوار الكوميدية على مسرح المدرسة.

- تقول إنك ميكانيكى ماهر، إذن لماذا هاجرت إلى خارج السودان؟ قالها أشرف متثائبًا وقد بدا عليه النعاس..

- أواسط التسعينيات.. تلك السنون العجاف التى طحنت الناس بالغلاء فهاجـــر خلالها كما تعلم كثير من الشباب بحثا عن سبل العيش التى ضاقت بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البلاد.. فقد بعث إلى عمى الذى كان يقيم بالسعودية بعقد عمل سافرت على أثره إلى المملكة، ذهبت مجبرا بعد أن تراجع العمل فى الورشة عما كان عليه فى السابق واضطر

أغلبنا إلى الهجرة بعد أن فقدنا الأمل فى انصلاح الحال.

تصبح على خير يا صاح.. قال أشرف ذلك وهو يقوم بسحب جزء من البطانية ويلفه جاعل منه وسادة وضع عليها رأسه وهو يحاول النوم تحت قصف الرعد وهزيم الرياح.

لم يستطع أشرف النوم، فهذه ليلته الخامسة عشرة فى المعسكر، صحيح أنه بدأ يروض نفسه المتمردة على قبول الواقع الجديد، وصحيح أنه أذعن إلى ما ساقته له زقداره إلا أنه لم ينسَ قط حنان، فقد أصبحت شغله الذى انشغل به عن كل ما سواه، فها هم الناس كلهم يغطون فى سبات عميق إلا هو، كيف ينام وطيفها يحلق من حوله، وصورتها وهى تئن تحت وطأة الألم قد ملأت آفاق روحه. و.. و.. ورجع بذاكرته إلى يوم أن التقاها لأول مرة.

سنابل القمح تتمايل مع الريح بلونها الذهبى مزهوة بحسنها كأنها عرائس تألقن فى ليلة زفافهن.. تتمايل فرِحة بمنحها الناس ديمومة الحياة والهناء، وحقول القطن تفتحت أزهارها كأنها جبال من السحب البيضاء تهاوت واستقرت على الأرض، تلفت أشرف يمنة ويسرة، فقال فى نفسه؛ سيكون عامى هذا هو عام الزواج، فها هو القمح عن يمينى، وذا القطن عن يسارى، والمحصولان نجحا بصورة لم يسبق لها مثيل، فنجاح أحدهما فقط، يعنى نجاح الموسم الزراعى بأكمله، فما بالى وكلاهما قد بدت عليه بشائر النجاح، أجال النظر مرة ومرتين وأحس بانشراح فى صدره ثم امتطى حماره وقفل راجعا إلى البيت.

وصل إلى البيت ودخل على والده فسلم عليه ثم دار الحديث بينهما حول الزراعة ونجاح الموسم وهم بأن يفصح لأبيه عن رغبته فى الزواج هذا العام إلا أنه عدل عن ذلك محدثا نفسه بأن يتريث إلى أن يجد الوقت المناسب.

نهض مستأذنا أبيه إلا أن أباه بادر سائلا: أشرف كأنك تريد أن تقول شيئًا.

- أنا؟ لا لا، فقط كنت أريد أن أسألك إن كنت تريد شيئًا قبل أن أخرج.. قال أشرف ذلك وهو يشيح ببصره حتى لا يرى أبوه علامات الكذب التى بانت على عينيه.

- يا بنى أنا والدك وقد ربيتك وأعلم جيدا كيف تفكر، أو يكذب على أكبر أبنائى؟ قالها حامد وكانت نبرة العتاب واضحة فى صوته.

- لم أكذب عليك.. حقيقة هممت بمصارحتك برغبتى فى الزواج عند نهاية الموسم إلا أننى لم أشأ ذلك وأنت على هذه الحال.

- ماذا بى؟ أنا الآن أحسن من زى وقت مضى، قال حامد ذلك وهو يمسح بطرف ثوبه حبات العرق التى تجمعت على جبينه، ثم استطرد: أنت الآن فى نهاية العقد الثالث، أنا عندما كنت فى مثل سنك كان عمرك حينئذ خمس سنوات.

كان حامد والد أشرف فى العقد السابع من عمره، أصيب بمرض السحائى الذى أعاقه عن الحركة تماما فعاش مشلولا يتنقل على مقعد متحرك، أوكلت أمور الأسرة لأشرف الذى كان ما يزال فى ريعان شبابه،

فقطع دراسته وتفرغ لإعالة الأسرة التى تتكون من إخوته: على، وأحمد، وأخواته الثلاث بدرية، ومحاسن، وروضة بالإضافة لوالديه.

- زمانا غير زمانكم، على أيامكم الدنيا كانت بخيرها، والحياة لم تكن معقدة كما هى الآن، الناس كانوا بسطاء وكل شيء كان فى متناول أيديهم، كان ذلك آخر ما نطق به أشرف، قبل أن يستأذن والده فى الانصراف.. خرج من عنده واتجه إلى حيث تجلس والدته فى «المظلة» التى تشغل حيزا كبيرا من «حوشهم» الواسع الذى تتوسطه شجرة النيم العتيقة التى غُرست فى حياة جده عبد الكريم منذ زمان بعيد، وكانت شاهدًا على كل الأحداث والتغيرات منذ أربعينيات القرن العشرين، تروى له عنها جدته الحاجة السرة بت الرفاعى التى بلغت من الكبر عتيا، ولا تزال تتمتع بذاكرة فولاذية: كان جدك عبد الكريم من أنجح المزارعين وأكثرهم تفانيا فى عمله، شارك عام 1941 مع آخرين فى إضراب المزارعين الشهير، أتاح له إلمامه بالكتابة والقراءة التى تعلمها بالخلاوى أن يصبح أحد أعضاء اتحاد المزارعين، تمرس فى العمل النقابى حتى ترأس الاتحاد مع قدوم أول حكومة وطنية، كانت حواشتيه اللتان ورثاها ابناه الوحيدان حامد والصافى بعد موته يضرب بهما المثل فى النظافة وجودة ووفرة إنتاجها.. تواصل السرة بت الرفاعى حديثها فى شجن وقد تحدرت من عينيها الذابلتين دمعتان سريا فى مجرى أخدودين من الأخاديد التى تبدأ من أسفل جفنيها وتنتهى إلى ما فوق فكها السفلى بقليل: دخل علينا جدك ذات أصيل وكان بصحبته المفتش الإنجليزى

ذو العينين الخضراوين وموظفان من مكتب المفتشين أحدهما مصرى، والآخر سودانى، كان السودانى يحمل فى يديه شتلتان من شجر النيم.. لم يكن حينها يحيط بغرفتنا الوحيدة المبنية من اللبن حوش أو ما شابه، كان ذلك حال كل البيوت فى قريتنا والقرى المجاورة فى ذلك الزمان.. جلس الضيوف داخل الديوان الكبير الكائن يمين غرفتنا الوحيدة، وهو عبارة عن راكوبة مفتوحة على كل الاتجاهات نصبت شِعَبها أعمدتها الإثنتي عشرة من سوق شجر السنط، وسقفت بأعواد القنا وقش الحمرايا، تقاطر الناس من كل البيوت للترحيب بالمفتش حتى فاض بهم الديوان، ذهب جدك إلى زريبة البقر، فقد عرف عنه الكرم بين أهل المنطقة، وجاء منها بعجل سمين، ذبحه إكراما للمفتش الإنجليزى ومرافقيه الذين تشرفت بهم دياره دون سائر بيوت القرية، أولمنا فى ذلك اليوم واحتفلت القرية احتفاء بالمفتش الذى قام بغرس أول نيمتين فى المنطقة، ذبلت إحداهما واصفر لونها قبل مرور الشهر، بينما نمت هذه التى نستظل بظلها الآن واشتد ساقها وكبرت مع مرور السنين حتى صارت أضخم شجرة فى المنطقة كلها، أطلق عليها أهل قريتنا وما جاورها نيمة عبد الكريم، وأضحت أشهر معلم فى القرية، فقد شهدت الكثير من الأحداث، إذ كان يجتمع تحت فيئها الوريف جل رجال القرية لتناول وجبة الفطور، واحتساء القهوة عندما ينتصف النهار، كما كانت تنصب بجانبها السرادق فى حالتى الموت والأفراح قبل أن تدخل القرية ثقافة تسوير البيوت وأحاطتها بهذه الأسوار العالية.

دخل على والدته وكان أمامها كانون وضعت عليه مقلاة ملئت بنا، استقبلته بترحاب وفرحة برهنتها بسمتها الودودة التى ارتسمت على شفتيها، جلس بجانبها وقد ملأت خياشيمه راحئة البن الذى عبق به المكان.

يا بدرية، نادت رقية على ابنتها..

– لبيك أمى، ردت بدرية التى كانت تقوم بغسل الأوانى، تركت بدرية ما بيدها ثم جاءت لأمها التى طلبت منها أن تجهز الغداء لأشرف.

ذهبت إلى المطبخ لإعداد الطعام، فقالت رقية لأشرف وهى تقوم بتقليب البن: لقد تأخرت اليوم كغير العادة، لعل الذى دعاك لذلك خيرًا.

– كانت لدى سقيا فى القطن، والماء فى مثل هذه الأيام عادة ما يكون قليلا.

– وهل وصل الماء إلى كافة الأفدنة؟.

– أطلقت الماء منذ البارحة والحمد لله غمر الأفدنة جميعها.

جاءت بدرية بالطعام ووضعته أمام أشرف.. وما إن شرع فى تناوله حتى أحس بالشبع بعد أن سيطر على تفكيره أمر الزواج، فتوقف عن الأكل رغم إلحاح والدته التى كانت تحثه على الاستزادة، لا سيما وأنه لم يتناول وجبة الإفطار، قالت رقية بخيبة واضحة بعد أن يئست من إقناعه: يبدو أن طعامنا لم يعجبك اليوم، رفع بصره ناحية أمه وقال فى امتنان: تسلم الأيادى التى صنعته، لقد شبعت يا أماه، ثم أردف مستفسرًا أين على وأحمد؟ لم أسمع لهما صوتا منذ مجيئى، لم ينتظر الإجابة فقد نهض وهو

يقول: سأذهب لأبى لأجيء به ليشرب معنا قهوة أمى المعتقة.

ضحكت أمه فى حبور وهى تشرع فى عملية سحن البن بتلك الطريقة الفنية التى برعت فيها، كانت عملية السحن تتم بإيقاع منتظم لدقات حديدة البن وهى تقوم بهرسه داخل الإناء الحديدى «الفندك»* القديم الذى تقول عنه جدته السرة بت الرفاعى إنه كان ضمن شلتها التى لم تتخط الخمسة وعشرين قرشا، بما فى ذلك «السحارة»* المصنوعة من أخشاب السنط والتى تقبع فى ركن قصى من أركان غرفتها الواسعة التى تعبق برائحة التاريخ.. خرج من عندها واتجه إلى غرفة والده وأخبره بأن موعد القهوة اليومى قد أزف ثم دنا منه وساعده على النهوض وأجلسه على مقعده ودفع به خارجًا.

اعتاد أشرف على برنامج القهوة المسائى منذ نشأته الأولى، فهو برنامج ثابت لوالديه يبدأ مع قدوم الأصيل ويتم فى طقس جميل ومنظم، ومناخ أسرى مفعم بالدفء والمحبة، كانت تُناقش خلاله كل هموم الأسرة، نشأ هو وإخوته على ذلك فصارت «قعدة» «الجبنة»- القهوة- من الثوابت التى لا تتغير أبدا فى بيت حامد.

وصل أشرف إلى «المظلة» وهو يدفع أمامه والده الذى يجلس على كرسيه المتحرك وقد ظهرت على وجهه علامات الصلاح واليقين، ومن يده تدلت مسبحته التى كان يحرك حباتها بين أصابعه فى انسجام تام مع حركة شفتيه اللتين لا تكادان تتوقفان عن الذكر.

حمل والده وأجلسه بجانب أمه، وهذه من الطقوس التى لا يمكن

لـ«القعدة» إلا أن تكتمل بها، جلس حامد بجانب رقية التى كانت منهمكة فى تحريك القهوة التى تغلى على النار، وخرج أشرف ثم عاد وفى يده كرسى وضعه ثم جلس عليه، وبعد قليل جاء على، وبدأ أفراد الأسرة فى التوافد واحدًا تلو الآخر إلى أن اكتملت الجلسة، دارت عليهم فناجيل القهوة فى جو أسرى كله حميمية.

قال حامد موجها حديثه لرقية وهو يحرك الفنجال يمنة ويسرة لإذابة السكر المترسب فى قعره: هذه السنة سنُزوج أشرف بإذن الله..

ردت رقية وهى تشفط رشفة من فنجالها: منذ خمس سنوات ونحن نردد مثل هذا الكلام دون جدوى، واستطردت فى رجاء: أشرف يا ولدى أما كفاك عزوبية. نريد أن نفرح بك.

- لم يحن الأوان، قالها أشرف مضطربا وقد كاد الفنجال أن يسقط من يده، أردف وعيناه ساهمتان إلى الأرض: لكل أجل كتاب يا أماه.

- ومتى يحين؟ العمر يمضى يا بنى، ما الذى ينقصك؟

لم يكن فى الحقيقة ينقص أشرف شيء، فالحال ميسور، وما تجود به حواشته يكفى لإعالة المزيد، هذا فضلا عن دخله من عربته الكارو الذى يزيد فى مواسم حصاد المحاصيل.

تكفل حامد بالرد على رقية وهو يمد لها الفنجال طلبا للمزيد: تكلمنا فى هذا الموضوع قبل قليل واتفقنا على أن يتم الزواج بعد نهاية موسم الحصاد.

لم تتمالك رقية نفسها وكادت أن تفلت من فمها زغرودة إلا أنها

أمسكت فارتعشت يدها وهى تصب القهوة إلى بعلها حتى كادت أن تصب بها خارج الفنجال، قالت بفرحة عارمة: ولِمَ لم تقولا لى؟.

إنها مجرد فكرة يا أمى، قال أشرف ذلك وهب واقفا، وقبل أن يغادر طلب من والديه أن يدعوا له ثم ودعهما وانصرف.

كان أأشرف عندما يجد نفسه من غير عمل. سيما عند الأصائل. حمل صنارته وذهب بها إلى «البحر» ليشبع هوايته التى نشأت معه منذ أن كان يافعا، هوايته التى كان يشاركه فيها صديقا الطفولة والصبا؛ الهميم ود الضو ومتوكلوف منذ زمان بعيد، فهواية الصيد تجرى فى عروقه كما دمه، فهى غير أنها تُسليه، كان مغرما بالخلو إلى نفسه دوما، خصوصا بعد اختيار متوكل القتال فى صفوف المعارضة، وانشغال الهميم بصغيريه، قلنا إن أشرف كان مغرما بالجنوح إلى الخلوة ما إن وجد إلى ذلك سبيلًا، وليس هنالك ما يوفر له هذا المناخ أكثر من البحر وجوّه الذى لا تعتور هدوءه أى ضوضاء، اللهم إلا أصوات ماكينات الرى التى تأتى من الضفة الأخرى والتى تحملها الرياح بين الفينة والأخرى.

حمل صنارته وخرج متوجها صوب البحر فوصل إلى هناك، وبدأ يعالج صنارته.. وضع فيها الطعم ثم ألقى بها إلى الماء، جلس على الحافة مدليا ساقيه وهو يفكر فى الحديث الذى دار بين أفراد أسرته فى وقت سابق حين «قعدة» القهوة، كان يفكر فى الحياة الجديدة التى ينوى الولوج إليها، لقد رفض من قبل كل مقترح قدمه له والداه فى هذا الشأن بحجة أن أخويه لا يزالان يدرسان وأن أسرته فى أمس الحوجة لخدماته، وأن الزواج

ربما شغله عن مسئوليته تجاههم، كانت أمه ترجوه بعزيمة لا تعرف اليأس، وكان يجيبها بكياسة تارة، وتارة بالإعراض عنها.. لم يكن أشرف عازفا عن الزواج كما يعتقد والداه، ولم يكن أعراضه عنه بسبب إحساسه بمسئوليته تجاه أسرته فحسب، إنما هنالك سبب قوى يعرفه أشرف وحده، فهو أنه لم يصادف فى حياته كلها المرأة التى دق قلبه لرؤيتها، كان موقنًا بأن قلبه خلق عذريا لم يفض بكارته أى حب سوى حب الله ورسوله ووالديه، وأن عذرية قلبه تلك لن يلوثها إلا بمن تستحق، وبينما كان يفكر على هذا النحو أحس بحركة قوية والعصاة تهتز فى يده، رنا إلى المكان الذى انتهت عنده الصنارة، كان الماء يدور بسرعة غير عادية مكونا دائرة قطرها يقارب الذراع.. ازدادت الحركة قوة حتى كادت أن تلقى به إلى الماء، أمسك العصاة بكلتا يديه ثم سحبها إلا أنه وجد مقاومة كبيرة فجمع كل قوته وسحب الصنارة خارجا، فإذا بها سمكة كبيرة من النوع البلطى الذى يحبه فانشرح صدره وتفاءل خيرًا.. نزع الصنارة من بين الخياشيم ثم أمسك بالسمكة ووضعها وراءه، وتناول طعما آخر ولف به الصنارة، وهم أن يلقى بها ثانية، إلا أنه سمع صوت ارتطام قوى، التفت وراءه فرأى مشهدًا جعله يرمى بالصنارة جانبا ثم يهب مهرولا ناحيته.

كانت حنان مع سرب من فتيات الحى وردن النهر للسقيا فملأن أوعيتهن ثم صعدن درجات القيف، وهو المنحدر الذى يصنعه اندفاع الماء حينما يفيض النهر، بدأن فى الصعود وحِملَهن على رؤوسهن، وبينما الفتيات يتدرجن فى تؤدة، درجة بعد درجة، تعثرت قدم حنان فسقطت

على وجهها وسقط معها الوعاء فاندلق الماء الذى تدحرج ناحية جسدها الملقى على الأرض، بلل الماء المندفع الجزء العلوى من ثوبها فالتصق بجسدها، مما أظهر مفاتن صدرها الذى جعل أشرف يقف مشدوها لا يقوى على الحراك.. تقدم نحوها، ومد إليها بيده وقد انعقد لسانه تماما، إلا أنه استجمع شجاعته وطفق يردد: سلامة سلامة، لا بأس عليك، رفعت إليه بصرها، كانت عيناها تبرقان سحرا وحياء وهياما، هاله ما رأى من جمال وهو ينظر إلى خديها اللذين توردا من فرط الحياء.. تسارعت دقات قلبه وهو يتملى وجهها الذى استدار كبدر أطل على الناس فى ليلة شديدة الظلام.. ازداد وجيبه فارتعشت يده وهو يمسك بيدها ويساعدها على النهوض وعيناه تكادان تخترقان وجهها القمرى، أرخت بصرها حياء عندما شعرت بنظرة الشغف التى ترسلها عيناه. تلعثم لسانها وهى ترسل كلمات الشكر، فقال وهو لا يزال ممسكًا بيدها: لم أفعل شيئا هذا واجب يقوم به أى شخص، فشكرته للمرة الثانية وهى تسحب كفها من كفه برفق، وقد سرت فى جسدها نشوة سرّعت من دقات قلبها.. حنان عبد القادر الشيخ، أو حنان «الحورية» كما كانت تناديها زميلاتها فى المدرسة، هى ابنة عبد القادر الشيخ تاجر المواشى المعروف، وخال صديقه الهميم ود الضو، فى السابعة عشرة من عمرها، وهى وحيدة أبويها إذ لم يكن لها إخوة، نشأت وسط دائرة من المحبة التى طوقتها بها عائلتا والداها،

وترعرعت وسط هالة من الاهتمام والتدليل، وشبت فى أحضان العز والنعيم الذى ترفل فيه عائلتها، فكبرت وتفتحت كزهرة رعاها

بستانى دون سائر الزهور.. كانت أجمل فتيات القرية على الإطلاق، معتدلة القوام، ممشوقة القد، واسعة العيون، صافية البشرة ناعمتها كأنها خلقت من الحرير، مياسة كغصن تتلاعب به الريح مما حدا ببنات جيلها أن يلقبنها بالحورية.. كان أشرف قد رآها من قبل، ولكنها كانت مجرد لمحة عابرة، إذِ اعتاد على عدم الحملقة وإدامة النظر فى وجوه النساء، أيضا سمع الناس يتحدثون عن جمالها الفاتن، ولكنه لم يتخيله بهذه الفتنة الهوجاء- كما يقول الشاعر صلاح أحمد إبراهيم- رجع صاحبنا إلى صيده وأمسك بالصنارة ورمى بها إلى الماء، جلس ووجهه إلى الماء الذى كان ينساب فاترا وسحر الأصيل يلقى بألقه على الضفتين، ونسمة شمالية حملت روائح شتى، رائحة الطين والماء، وشىء من رائحة اللوبيا التى تزدان بخضرتها ضفة النهر الأخرى.

سرح أشرف مسترجعا المشهد السالف وصورة حنان قد ملأت عقله وكيانه فجبذ الصنارة إلى خارج الماء ولف حبلها بالعصاة وحمل صيده على كتفه وقفل راجعا إلى المنزل مكتفيا بالسمكة الوحيدة، وصيده الثمين الذى اصطادته صنارة قلبه.

دخل على والدته ووجهه يتهلل بشرا، حياها ثم ناولها سمكته الوحيدة وهم أن يبوح لها بمكنون قلبه، إلا أنه آثر التريث، فهو لم يتأكد بعد من كنه هذا الشعور الذى لم يحسه من قبل، فهذه أول مرة يسمع لقلبه وجيبًا، قد يكون مجرد إعجاب، أو ربما كان محض استلطاف لم يبلغ درجة الحب بعد، و.. و.. وسنابل القمح تتمايل مع الريح بلونها الذهبى

مزهوة بحسنها كأنها عرائس تألقن فى ليلة زفافهن.. تتمايل فرِحة بمنحها للناس أسباب وديمومة الحياة والهناء، وحقول القطن تفتحت أزهارها كأنها جبال من السحب البيضاء تهاوت واستقرت على الأرض. صدر عن صلاح الذى ينام قريبا شخير قطع على أشرف حبل أفكاره، فخمن أن الساعة يمكن أن تكون قد تجاوزت الواحدة صباحا، وغدا سيكون أمامهم رياضة الجرى فيجب عليه أن ينام الآن وإلا سيكون عرضة للإرهاق، وضع يده تحت خده وأغمض عينيه متحايلًا على النوم الذى جافى عينيه على الرغم من إحساسه بالنعاس. لا يذكر اللحظة التى نام فيها ولكنه صحا من نومه على صافرة النداء فهب فزعا وتقلب فى فراشه قليلا قبل أن ينهض ويتناول فرشاته ويذهب إلى الحمام. كانت الرياح قد هدأت تماما، وحبات المطر تتساقط فى تكاسل، وقد خفت لمعان البروق التى رحلت إلى الأفق وهى تبرق بين الفينة والأخرى، كأنها شرر يتطاير من على الأرض، ودوى الرعد يأتى من بعيد تحمله موجات النسيم الذى يهب بليلا رقيقا.. جو مفعم بالسحر حل على الكون مع قدوم الفجر الذى بزغ مبددا الظلام، والصبح الذى تنفس لاهثًا ليعلن عن ميلاد يوم جديد.

. لم يبارح أحمد وعلى المستشفى طوال الأيام التى غابت فيها حنان عن الوعى، والأيام التى تلت تماثلها للشفاء، فقد ظلا ملازمين لبخيتة حتى شفيت حنان تماما وبعدها غادرا المستشفى للبحث عن أشرف، كان أول ما فعلاه أن قصدا معسكرات التدريب، ففى تلك الفترة كان كل من غاب

بصورة فجائية، جرى البحث عنه فى معسكرات التدريب، وهى الفترة التى تم فيها عسكرة الشعب بصورة لم يسبق لها مثيل، فالشعار يومئذ كان «فلترق كل الدماء». بعد بحث مضن، ومن معسكر إلى معسكر، وصلا أخيرا إلى «فتاشة» وكان أن ذهبا مباشرة إلى مكتب الاستقبال فوجدا فيه ثلاثة من العساكر، أحدهم برتبة عريف، وآخر برتبة رغيب، أما الثالث والذى تحدثا معه كان بلا رتبة، يدل على ذلك خلو كتفيه من أى علامة.. تحدث على بمسكنة بعد أن ألقى بتحيته: إننا نبحث عن أخينا، واسمه أشرف حامد..... .... أجابه العسكرى بصوت أجش وهو ينظر إليهما بازدراء: ومن هو أشرف حامد هذا؟.....

ـ أشرف حامد عبد الكريم.. شاب فى الثلاثين من عمره، اختفى قبل أسبوعين من الآن.. كان مع زوجته بالمستشفى وخرج ليجلب لها دواء ولكنه لم يعد حتى هذه اللحظة.....

- وما الذى يجعلكما تعتقدان أنه هنا؟ ولمَ لم تبلغوا الشرطة عن غيابه؟..... تلعثم على وهو يتحدث لأول مرة منذ أن وصلا: فكرنا أن نفتش عنه فى المعسكرات أولا، وإن لم نجده فحتما سنقوم بإبلاغ الشرطة .. بحثنا عنه فى كل المعسكرات تقريبا لكننا لم نجد له أثرا.

أشار العسكرى بيده قائلا: اذهبا إلى ذاك الرجل فقد تجدان عنده ما يفيدكما..... ذهبا إلى الرجل المعنى، وهو العريف الذى أشرنا إليه سابقا، ألقيا عليه بالتحية ثم أعادا عليه ما قالاه لزميله، حدجهما

بنظرة فاحصة قبل أن يأمرهما بالجلوس.

جلسا وهما ينظران إليه برجاء، فقال مستفسرا وهو يسحب ملفًا كان أمامه: فى أى تاريخ اختفى أخيكما؟

.. قبل أسبوعين تقريبا، أجاب أحمد، وهم بأن يضيف شيئًا إلا أن سيادة العريف لم يمهله فقد واصل بحثه بصوت مسموع وهو يلقى بنظره على الملف؛ أشرف.. أشرف.. أشرف .. أشرف حامد عبد الكريم، مواليد 1972 حاصل على الشهادة الثانوية.. السكن ولاية الجزيرة محلية الكاملين.. متزوج وأب لولد واحد، مجند أشرف بالرقم 1563، إنه هنا بالمعسكر، وقد تم تسجيله رسميا بكشوفات المعسكر فى الثانى والعشرين من يوليو 2002.... أيمكننا رؤيته. صاح على، وقد تهلل وجهه.. إذن فأخوهم حى يرزق، وفى أياد أمينة.. . . . . نعم يمكنكما ذلك.. قالها العريف ثم نادى على زميله وطلب منه أن يذهب إلى العنابر ويبحث عن مجند باسم أشرف حامد، ويخبره بأن هناك زائرين يودين رؤيته..... غاب العسكرى مدة ليست بالقصيرة، وعاد ومعه أشرف الذى جاء متلهفا لمعرفة زائريه، وما إن رأى على وأحمد حتى تهلل وجهه وصاح غير مصدق: أأنتما؟..... ..... نهض كلاهما وسلما عليه بفرحة عارمة، وكانت فرحته برؤيتهما أشد، طلب من العريف أن يأذن له بوقت كاف حتى يتسنى له أن يعرف أخبار الأهل..... .... أذن له العريف بأن يأخذ الزمن الذى يريحه بشرط أن لا ينسى موعد طابور ما

بعد الظهيرة، فشكره ولحق بأخويه اللذين خرجا من مكتب الاستقبال بالباب الذى يفضى إلى باحة المعسكر بعد أن سلما بطاقتيهما إلى الموظف. ذهبا وجلسا فى ظل شجرة النيم الضخمة التى تقف على بعد أمتار من بوابة المعسكر الجنوبية. وصل أشرف وجلس بين أخويه وطفق يسأل وهو يلتفت لأحمد تارة، ولعلى تارة أخرى دون أن ينتظر إجابة فقد كان فى لهفة شديدة لمعرفة أخبار الأهل: خبرانى كيف حال أبى وأمى، وبقية أفراد الأسرة. وماذا جرى لحنان فى غيابى. هل هى بخير. وكيف ابنى وماذا سميتموه، وماهى أخبار الزراعة وأهلنا فى القرية. طرح أشرف كل هذه الأسئلة دون أن ينتظر إجابة، قال أحمد ضاحكا: على رسلك يا أخى ..ستعرف كل شيء .. واحدة، واحدة وواصل حديثه. نريد أن نعرف كيف جئت إلى هنا؟..... ..... .

. . ستعرفان، أجاب أشرف وقد لمع فى عينيه بريق غريب، وأردف: لكنى فى لهفة لمعرفة كل صغيرة وكبيرة. خصوصا أخبار حنان .. قال ذلك وقد بدت على وجهه سحابة من الحزن لم تلبث أن انقشعت وهو يرى ابتسامة صافية على شفتى على الذى لم يتحدث منذ أن انضم أشرف لمجلسهما..... . . . بدأ أحمد فى سرد ما مرت به حنان منذ أن غادر أشرف المستشفى إلى لحظتهم هذه، تحدث بإسهاب عن غيبوبتها التى دامت لثلاثة أيام متتالية دون أن تصحو ولو لدقيقة واحدة، لدرجة أنهم وطنوا نفوسهم لتوقع أسوأ الاحتمالات .كان أشرف ينصت لأخيه باهتمام دون أن يقاطعه. فظهر التأثر على محياه وبدأ منفعلا وهو يمسح

بيده على وجهه الذى ذوت نضارته حرارة الشمس ومداريا دمعة أشرقت بها عيناه، حاول على الذى تأثر بدوره مواساته فقال وهو يحاول طمأنة أخيه. حنان الآن فى أحسن حالاتها، وقد شُفيت تماما ولولا ذلك لما كنا معك هنا، وحامد الصغير فى أتم الصحة، ويشبهك لحد بعيد، ولاحظت أنه يتفرس فى الوجوه كأنه يبحث من بينها عن وجهك ضحك ثلاثتهم عندما نطق على عبارته الأخيرة التى قصد بها إخراج أشرف من الحزن الذى ظهر على قسمات وجـهـه..... توقف أشرف عن الضحك فجأة وقال: المهم، قولا لى كيف حال أبى وأمى؟..... . نظر على لأحمد نظرة ذات مغزى قبل أن يجيب: أمى قامت بزيارتنا، وقد أفزعها غيابك إلا أننا طمأناها بأنك فى أحد المعسكرات. فقد اختلق لها أحمد قصة مؤادها أن صديقه فى الجامعة رآك فى المعسكر عندما ذهب لزيارة أخيه..... .... أو صدقته؟..... .....ليس تماما، رد على، ثم استطرد؛ أما أبى فقد تعرض لوعكة خفيفة كما أخبرت بذلك الوالدة، إذ إنه أصيب بالملاريا إلا أنها لم تؤثر على صحته كما هو الحال من قبل..... لم تقل لنا كيف تم القبض عليك. قالها أحمد بفارغ صبر ظهر فى نبرة صوته..... . . حكى أشرف قصته منذ أن غادروا قريتهم حتى لحظة لقائه بهما، وتحدث عن معاناتهم فى الأيام الثلاثة الأولى بالمعسكر قبل أن تعتاد أجسامهم على قساوة التدريب، وتُروض نفوسهم على تقبل الأساليب الفظة التى يعاملهم بها السادة

التعلمجية، ثم ختم حديثه قائلا؛ والآن وقد أذعنا لواقعنا الذى فرضته علينا الظروف، ولا ندرى ما سيحمله الغد من مفاجآت، قال ذلك بنبرة حزينة وهو ينظر إلى فناء المعسكر الذى خلا تماما إلا من بعض العساكر الذين كانوا يتجولون بين المكاتب.. نظر على إلى ساعة يده، وقال؛ يبدو أن الزمن قد سرقنا فالساعة الآن بلغت الثانية والنصف وأنت يا أشرف قلت لم تنم ليلة البارحة فيجب أن نستأذنك الآن ونتركك لتأخذ قسطا من الراحة قبل أن يحل موعد الطابور .. سنودعك الآن على أمل اللقاء بك فى سانحة أخرى..... نهض ثلاثتهم واتجهوا نحو مكتب الاستقبال لاسترداد بطاقتى على وأحمد فوصلوا إلى هناك فأخذا بطاقتيهما ثم ودعا أشرف الذى كادت أن تفلت من عينيه دمعة وهو يشيعهما بنظراته إلى أن غابا عن عينيه. . . . . رجع إلى خيمته والإحباط يملأ نفسه، فزيارة أخويه زادت عليه الحنين إلى أهله وخصوصا زوجته التى ما غاب عنها يوما واحدا منذ أن تزوجا، أحس بالضيق وهو يتذكر حلمها الذى كان يراودها فى منامها على الدوام.. وصل هناك ووجد غالبية المجندين يغطون فى نومهم، ووجد صلاح فى انتظاره فسأله بفضول عن ضيوفه، أخبره؛ أنهما أخواى على وأحمد، لم يتركا معسكرا للتدريب إلا وذهبا إليه وأخيرا هداهما تفكيرهما إلى أن يجيئا إلى هنا.. لا أصدق أنى التقيت أحدا من أهلى فقد طمأنانى على ما كان يقلق منامى..... . ما هى أخبار زوجك. قال صلاح ذلك متثائبا، فقد صحا لتوه من نومه..... . . . . شفيت تماما.

- أو ما زالت بالمستشفى؟

- نعم لا تزال بالمستشفى، ولكن ستغادره غدا أو بعد غد، على حسب ما أخبرنى به شقيقاى نقلا عن الأطباء.

- ألن تنام؟

- حقيقة أشعر برغبة شديدة فى النوم، ولكن لا أدرى أأستطيع ذلك أو لا، واصل أشرف حديثه قائلا. كم تبقى من زمن على موعد الطابور؟.

- بضع وأربعون دقيقة، أليست كافية لتحلم فيها أحلاما سعيدة. ختم صلاح عبارته الأخيرة ضاحكا وهو يمط بعبارة سعيدة.

حاول أشرف الذى رقد مسترخيا أن يبعد أى تفكير عن رأسه حتى يستطيع أن يغفو ولو قليلا، إلا أنه لم يستطع، فقد تذكر أيامه الجميلة فى عشته السعيدة مع حنان وبخاصة الشهور الأولى من زواجه والذى مر عليه عام كامل.. وأعادته الذكريات إلى الأيام التى سبقت زواجه عندما عرف الحب لأول مرة فى حياته، يوم أن ساقته أقداره السعيدة إلى دنيا حنان.

***

مر يومان على حادثة السقوط وقلب أشرف يزداد تعلقا بالحورية، فأراد أن يعرف إن كانت تبادله ذات المشاعر، ولكن أنى له ذلك؟ يومان مرا ولم تظهر حنان مع رفيقاتها اللائى يأتين إلى النهر للسقيا، خشى أن يكون قد أصابها مكروه، أو أنها أقلعت عن ورود الماء بعد ذلك الحادث، لا سيما وهى المدللة التى لا يمكن أن تُعرض حياتها للخطر.

مرت الأيام تباعا وأشرف ينتظر ظهورها على أحر من الجمر فما من طريقة أخرى يستطيع بها رؤية حنان، وبعد مرور أسبوع بأكمله ظهرت ورآها أشرف وهى تتمخطر بين صويحباتها وهن يتهادين وحَمْلُ الماء على رؤوسهن، طار لبه وتسارعت دقات قلبه، وتأوه فى صمت.. أسبوع بأكمله وهو يذرع الطريق المفضى إلى البحر جيئة وذهابا، والألم يعتصر قلبه الذى لم يعرف مرارة الوجد من قبل.. ها هى الآن مقبلة نحوه تفصلها عنه خطوات.. لم يصدق عينيه فى البداية، ولكن ها هى الآن أمامه.. تبادلا النظرات.. ابتسمت فى دلال واضح دون أن تحس بها رفيقاتها.. رفعت يدها كأنها تمسح قطرات الماء التى نزلت من وعائها على خديها، ولكنها فى الحقيقة كانت تحية لأشرف الذى شعر بأنه أصبح ريشة فى مهب رياح الغرام وأن الأرض تميد تحت قدميه، وحنان ترمقه بنظراتها الولهى، وتتثنى فى غنج كأنها غصن تتلاعب به الريح.

بلقائهما العابر الصامت هذا، والذى تحدثت فيه لغة العيون، قدر أشرف أن حنان تبادله ذات المشاعر وأنه يجب عليه أن يخطو خطوة إيجابية ويخطبها من أبيها، تذكر أن أباها رفض كل من تقدم إليها دونما أسباب واضحة، فهل يا ترى سيحظى بالارتباط بها. أحس بالضيق وهو يفكر فى ذلك، إلا أنه لم يشأ أن يفسد بهجة المشهد السالف، فغرق فى أحلامه الوردية وهو يتجه صوب دياره.

دخل على والده متهلل الوجه فجلس قبالته بعد أن حياه، تحدثا فى مواضيع شتى، وكانت تتخلل حديثهما فترات رتيبة من الصمت، فأشرف

يريد أن يفصح عن ما فى صدره ولكنه لا يدرى من أين يبدأ، وماذا يقول؟

ماذا بك يا أشرف؟ ألقى حامد بسؤاله على أشرف وهو يلف المسبحة ويطوق بها معصمه..

- ليس هنالك شيء.. فقط أردت أن..

- أردت أن تفتح معى موضوع الزواج، قالها حامد وهو يقاطع ابنه..

- نعم هو كذلك، قالها أشرف وابتسامة عريضة ارتسمت على شفتيه..

- ووجدت العروسة؟

- تقريبًا..

- لا أريد إجابة فضفاضة.. ألديك فتاة بعينها تودّ الارتباط بها؟

- نعم.. كريمة عبد القادر الشيخ.

صمت حامد قليلًا قبل أن يقول، ولكن سمعت أن عبد القادر رفض كل من تقدم لها.

- فلنجرب، ربما كانت من نصيبى.

- لا أدرى ماذا أقول لك، ولكن فليوفقك الله، عبد القادر الشيخ من خيرة رجال القرية، استطرد حامد وابتسامة غامضة ترتسم على شفتيه: هل أخبرت أمك؟

- لا.. لم أخبرها.

- إذن اذهب وأخبرها، فهى تتمنى سماع ذلك منذ سنين.

- ما هى خطوتنا التالية؟ قالها أشرف وهو يحس كأن صخرًا أزيح عن صدره بعد أن أباح لأبيه برغبته.

- كما ترى فأنا رجل مقعد لا أستطيع أن أذهب إلى عبد القادر، ومن الأفضل أن تطلب من عمك الصافى وخالك محيى الدين أن يذهبا معك، وأرجو أن تمروا على قبل ذهابكم.

انطلق من عند أبيه والفرحة لا تكاد تسعه فذهب إلى أمه أولا، وزف إليها بالخبر الذى انتظرته طويلًا..

استقبلت رقية الخبر بفرحة عارمة. فانطلقت من حنجرتها زغرودة طويلة جراء النبأ الذى جعلها تخرج عن سمتها الذى عرفت به، فأشرف ابنها البكر قد حرمته الحياة من مباهج الشباب، وسجنته الظروف إذ حبسته المسئولية عن الانطلاق فى رحابها الفسيح، فمنذ شبابه الباكر ألقيت على عاتقه مسئولية إعالة الأسرة، فكان أن تحملها بشجاعة وصبر نادرين، مما جعله أقرب أبناء حامد لقلبى والديه.

انبسط أشرف وهو يرى الفرحة تغمر والدته، وأطربته زغرودتها التى عبرت عن إحساسها بالسعادة، فقال لها وهو يهم بالخروج: أرجو أن تدعو لى بالتوفيق، ثم استأذنها وانصرف تشيعه دعواتها.

خرج قاصدا منزل عمه الذى لا يبعد عن منزلهم إلا أمتارا قليلة.. دخل على عمه وأخبره أن أباه يريده فى الحال، دون أن يعلن عن الأسباب التى دعته لذلك.

- خير.. هل جرى لأبيك مكروه؟ سأل الصافى وقد اتسعت حدقتاه إلى آخرها..

- لا، خير، فقط يريد أن يستشيرك فى أمر طارئ.

- وما هو الأمر الطارئ هذا الذى لا يحتمل التأجيل.

- ستعرفه من أبى حينما تقابله.

- إذن هيا بنا، قالها الصافى ثم هب واقفًا وحمل عكازته وخرج بصحبة أشرف الذى تحدث مع عمه قائلًا، لدى مشوار آخر، سأغيب خلاله عشر أو خمس عشرة دقيقة وسأوافيكم بعدها بالبيت.

استأذن عمه واتجه نحو منزل خاله والبشر يطفح من وجهه، والآمال بالظفر بحنان تملأ فؤاده الذى فاض صبابة.

استأذن بالدخول على خاله فأذن له فدخل على محيى الدين الذى رحب به وأجلسه بجانبه، لم يكن لدى محيى الدين صبر، فسأل أشرف المنبسط الأسارير كغير العادة عن سبب انبساطته والزيارة المفاجئة التى شرفهم بها. فأخبره أن أباه يريده لأمر ضرورى ،ألح محيى الدين الذى تملكه الفضول فى معرفة السبب، إلا أن أشرف رفض أن يخبره بأى شيء متعللا بأنه لا يدرى شيئًا عن السبب الذى دعا والده لأن يطلبه.

خرجا سويا وهما يتحدثان عن موسم الحصاد الذى شارف على المجيء، أيام قليلة تبقت على حصاد القمح، والقطن الذى بقى على نهاية جنيه. لقطة.. أو.. لقطتين .. كان محيى الدين يتحدث عن نجاح الموسم وأشرف لا يكاد يسمع منه شيئًا، إذ سافر بخياله إلى عالم حنان، وحلقت روحه ترفرف هائمة حول ذلك العالم الساحر الذى شاده بخيوط من نور.

وصلا إلى البيت ودخلا على حامد وكان بمعيته أخوه الصافى، جلسا إليهما بعد أن أديا التحية، قال حامد الذى كان مستلقيا على ظهره مبتدرا

الحديث: بعثت إليكما لموضوع يخص ابننا أشرف. فكما تعلمان فهو فى التاسعة والعشرين من عمره ولا يزال أعزب.. نريد أن نضع حدا لهذه العزوبية، ونكمل له نصف دينه فما رأيكما؟

نود أن نعرف رأى أشرف أولا.. قال محيى الدين ذلك وهو ينظر إلى أشرف شذرًا.

- هذه المرة أشرف هو من طلب ذلك. قالها حامد وهو يركز بصره على مروحة السقف التى تدور فى هدوء ورتابة، وأصابعه تعبث بحبات المسبحة.

- تحدث الصافى قائلا: إذن على بركة الله، واستطرد مستفسرًا؟ وهل وجد عروسته؟

- هذا ما طلبتكما من أجله، ابننا يرغب فى مصاهرة عبد القادر الشيخ، وأريد منكما أن تذهبا إليه وتطلبا يد ابنته ولا بأس أن تأخذا معكما أشرف إن لم يمانع.

دخلت على مجلسهم رقية تسبقها رائحة القهوة التى جاءت بها، وضعت الإناء على المنضدة بجانب زوجها، فقال محيى الدين موجها حديثه لرقية: لعلك تعرفين لماذا نحن هنا، فما رأيك؟

- رأيى فى ماذا؟، قالت رقية ذلك وهى تقوم بصب القهوة، ثم أردفت: إن كان فى مبدأ الزواج فهذه أمنيتى التى خشيت ألا تتحقق، أما إن كنتم تريدون رأيي فى العروس، فما كنت رافضة أمرا تفصلون فيه أنتم، وفى النهاية الرأى عند أشرف، فهو رجل عاقل ولا بد أنه فكر كثيرا

قبل أن يقبل على أمر كهذا.

– عين العقل، هذا ما أردنا سماعه يا رقية، قالها الصافى وهو يتناول منها الفنجال الذى كانت تفوح منه رائحة البن مع غلالة البخار المتصاعد.

جلس أشرف صامتا يتنقل ببصره حولهم إلى أن توجه إليه خاله بسؤال جرىء جعل ضربات قلبه تزداد فى تسارع محموم، فقد سأل محيى الدين فى جرأة يحسد عليها: أو تحبها يا أشرف؟

ازدرد أشرف ريقه إذ لم يتوقع مثل هذا السؤال، فقال متلعثما. الأمر لا علاقة له بالحب، رأيتها مرة وأعجبتني فأحببت أن تكون زوجتى، قال أشرف ذلك وهو يعلم أنه لم يقل الحقيقة، خشى أن يستشف الحاضرون ما بدواخله فقال بأدب وهو يطأطئ برأسه إلى الأرض وقد أحس بمرارة القهوة فى حلقة لأول مرة: حنان كل شباب القرية يتمنون الارتباط بها.

حسنا، متى سنذهب لوالدها؟ ألقى الصافى بسؤاله، وقبل أن يجيبه أحد قال: من رأيى أن نذهب مساء اليوم بعد صلاة المغرب.

أثنى محيى الدين على كلام الصافى، وأضاف خير البر عاجله، قالت رقية وهى تجمع الفناجيل وتضعها على الصينية: أسأل الله أن يتمم من غير عسر.

نهض الصافى ومحيى الدين مودعين حامد ثم غادرا بعد أن اتفقا مع أشرف على أن يلتقيا به فى المسجد ويتحركون من هناك بعد صلاة المغرب.

مشاعر عدة اعتملت فى نفس أشرف؛ الخوف، والرجاء، والفرح، والشوق.. مشاعر جعلت الزمن فى حالة توقف تام، كان منذ أن انفض

جمعهم يترقب فى قلق موعد انطلاقهم لبيت من ملكت قلبه خلال أيام.

الله أكبر.. الله أكبر.. سمع صوت الأذان، فانخلع فؤاده، وتشتت فكره، وظل يسائل نفسه هل سأحظى بقبول عبد القادر؟، وكيف ستكون ردة الفعل إن رُفض؟ تنهد من أعماقه محاولا طرد هذه الخواطر السوداء، فطلب من والديه اللذين كانا ينظران إليه بإعجاب أن يدعوا له بالتوفيق.

خرج فى كامل زينته، تشيعه دعوات حامد ورقية، وتوجه صوب المسجد وهناك التقى بعمه وخاله، وأقيمت الصلاة، صلى بقلب لم يعرف الخشوع إليه سبيلا، لدرجة أنه لا يتذكر بم قرأ الإمام .. انتهت الصلاة وخرج ثلاثتهم نحو وجهتهم.

***

تفضلوا.. تفضلوا، استقبل عبد القادر زائريه بحفاوة مبالغ فيها، وهو يتقدمهم إلى داخل داره الرحبة مرددا كلمات الترحيب.. مرحبا بالأكارم، قالها ثم التفت ناحيتهم وطلب منهم الانتظار ريثما يعود.. ولج داخل الديوان الكبير ثم عاد يحمل عددًا من الكراسى، وضعها وطلب منهم الجلوس وهو يختلس النظر وقد ارتسمت على عينيه الواسعتين علامات الاستغراب، غير أنه لم يلبث أن قال وعلى شفتيه ابتسامة عريضة: أهلا وسهلا.. رد محيى الدين والصافى التحية بأحسن منها، بينما همهم بها أشرف الذى ضاع صوته فى حلقه من شدة الرهبة.

سادت فترة من الصمت، حسبها أشرف دهورًا قبل أن يتنحنح الصافى

ويبتدر الحديث قائلًا. أسعار المواشى فى ازدياد مطرد فى هذه الأيام، ثم أضاف وهو ينظر إلى عبد القادر: أظنه زاد بنسبة ثلاثين بالمائة عما كان عليه فى الشهر الماضى.

– منذ سنوات والسوق فى تذبذب مستمر، ولا يكاد يثبت على حال، التصدير إلى خارج البلاد له دور كبير فى ذلك. قال عبد القادر ذلك، واستطرد وهو يحك ذقنه: ولولا وارد غرب البلاد لجفت السوق تمامًا.

تدخل محيى الدين قائلا: مواشى غرب البلاد عادة ما تكون هزيلة، فهى تقطع المسافات الطويلة قبل أن تصل إلينا، لذلك فهى غير مرغوبة.

– هذه حقيقة، ولكن يمكن إعادة تسمينها خلال شهرين أو ثلاثة، غير أن شراهة التجار واستعجالهم الربح هو ما يعجل بها إلى السوق، قال عبد القادر ذلك ونهض مستأذنا ثم توجه إلى داخل. الديوان.

يتكون منزل عبد القادر من ثلاثة غرف، وفرندتين بالإضافة إلى الديوان الكبير ذي الثلاثة أبواب.. بابان منها يطلان على باحة واسعة غرست فيها أشجار الليمون والجوافة وبعض أشجار الزينة التى تحف بشجرتى النيم والسنط اللتين تتوسطان الحوش، أما الباب الثالث فهو داخلى إذ يفتح فى إحدى الردهات ويفضى إلى بقية الغرف، وقد بُنى المنزل وسط حوش رحب تزيد مساحته على السبعمائة متر ويشغل الديوان وسوره وحدهما نصف هذه المساحة.

جاء عبد القادر وهو يحمل منضدتين مصنوعتين من أخشاب الأبنوس ووضعهما بجانبهم ثم رجع وغاب لبضع دقائق ليعود بعدها

وهو يحمل صينية بها كؤوس يتوسطها إناء مملوء بعصير الليمون، دارت عليهم الكؤوس ودار محور حديثهم حول مواضيع شتى، تحدثوا فى السياسة والحرب التى راح ضحيتها خيرة شباب الوطن، وطاف بهم الحديث حول الزراعة، ومشروعهم الذى قل إنتاجه بصورة تدعو إلى الريبة، لكأنما هناك أيادٍ خفية تحاول تدميره لأسباب غير معروفة، فما إن تشارف محاصيلهم على النضوج حتى تجف المياه عن القنوات التى طالتها يد الإهمال هى الأخرى لدرجة أن غطتها الحشائش والطفيليات التى تمنع انسياب الماء بصورة سلسة مما يؤدى لتعسر الرى.. قال الصافى وهو يزدرد جرعة كبيرة من عصير الليمون: لا لا أكيد أن فى الأمر سرًا، فلا يمكن أن يكون الأمر مجرد عجز من قبل الإدارة والحكومة، لقد تكرر هذا الأمر لخمسة مواسم متتالية الأمر الذى أدى لهجر كثير من المزارعين زراعة بعض المحاصيل التى كانت تمثل لهم عماد دخلهم من المشروع.

تدخل محيى الدين وهو يقول: الحكومة لم تعد بحوجة إلى دخل الزراعة بعد أن انتفخت خزينتها بعائدات النفط..

- كنا نعتقد أن النفط سيساعد على العمل فى تطوير الزراعة، فهى المخرج الوحيد من أى أزمة اقتصادية قد تمر بها البلاد، قال عبد القادر هذا ثم واصل، وإذا سارت الأمور على هذه الوتيرة فسياتى يوم لن نجد فيه مزارعا واحدا يقوم بفلاحة أرضه.

كان أشرف يستمع إلى حديثهم والتوتر باد على قسمات وجهه، فطن عمه الصافى الذى كان يجلس قبالته لتوتره الذى ظهر جليًا فى تقطيبة

جبينه التى أبانها انعكاس ضوء المصباح الخافت المثبت على جدران الديوان الخارجى.. تنحنح الصافى قليلًا وهو يحاول تغيير دفة الحديث فأنشأ يقول وهو ينظر إلى عبد القادر وقد علت صوته نبرة رجاء: لقد قصدناك فى أمر بالغ الأهمية، ونرجو ألا تخيب ظننا.

- إن كان فى مقدورى قضاؤه فلن أتأخر، قال عبد القادر ذلك وقد أبرقت عيناه الواسعتان، وارتسمت على وجهه المكتنز علامات الحيرة.

ازدادت ضربات قلب أشرف وهو ينظر إلى عمه تارة، وتارة أخرى إلى عبد القادر الذى بكلمة واحدة تخرج من فيه ستجعله إما أن يكون أسعد رجل فى الدنيا، أو أتعس من مشى على الأرض.. انتظر اللحظة الفاصلة بنفاد صبر، وتمنى لو أنه لم يفكر فى هذا الأمر من أساسه، فقد عد الثوانى التى ساد فيها الصمت قبل أن يواصل عمه حديثه دهورًا.

- أشرف ابن أخى هذا يروم مصاهرتك.. ألقى الصافى بعباراته تلك وهو ينظر إلى ابن أخيه الذى كان فى حالة يرثى لها.

فوجئ عبد القادر بطلب الصافى، فرفع بصره نحو أشرف الذى امتعق وجهه وظهرت عليه علامات الاضطراب حتى بدا وكأنه يعانى من مرض عضال.

كان أشرف من أميز شباب القرية إن لم يكن أميزهم على الإطلاق. فعلاوة على أدبه الجم ورجاحة عقله، ووسامته التى لا تخطئها عين، وحصوله على نسبة لا بأس بها من التعليم كان من القلائل الذين يشار إليهم بالبنان، فقد جمع من الصفات الحميدة مثل الكرم والشجاعة

والمروءة وسماحة النفس ما أهله لأن ينال احترام الكبير قبل الصغير من أهل قريته، وانتزاع حب كل من عرفه عن قرب.

فعن شجاعته يذكر عبد القادر أنه خرج ذات ليلة من ليالى يناير الشديدة البرودة والظلام، يبحث عن ثور كان قد تأخر عن القطيع، فذهب يبحث عنه بين الحقول خارج القرية، وصادف أن مر بحواشة حامد فرأى من على البعد شيئًا حسبه لأول وهلة فزّاعة. من تلك التى ينصبها المزارعون وسط حقولهم لإخافة الطير. إلا أنه سمع صوتا كأنه معول يضرب الأرض يأتى من جهة ذلك الشبح، توقف قليلا قبل أن يتحرك نحوه، ولما دنا منه فوجئ بشخص يقف على حافة جدول وهو يعالج سدًا من الطين انهار تحت ضغط المياه الشديد.. ويذكر عبد القادر أنه وقف محييا ذلك الشخص دون أن يتعرف عليه، كانت المفاجأة التى ألجمته حينما رد عليه أشرف التحية، فقد تأكد أن الذى أمامه هو أشرف ود حامد الذى لم يتخط عمره يومئذ السادسة عشرة، سأله باستغراب: هل أنت هنا لوحدك؟

- كما ترى..

- وأين أبوك؟

- داهمته الملاريا..

- وما الذى يجبرك على العمل فى مثل هذه الساعة، لا سيما والليلة شديدة البرودة، أما كان الأحرى بك أن تؤجل ذلك إلى صبيحة الغد؟

- لقد شرع أبى فى رى القمح عند الظهيرة، غير أنه أحس بالحمى

تسرى فى جسده، فقام بفتح قناتين لتسريع عملية الرى ولكنه شعر بأن المرض قد تمكن من أعضائه، فقفل راجعا إلى البيت تاركا المياه تنساب إلى داخل الحواشة، ولما أن رأى أنه غير قادر على الحركة، كلفنى أن أجىء هنا وأقوم بمراقبتها حتى لا تُغرق المحصول..

- لا أدرى ماذا أقول.. ولكن وفقك الله.. ثم قام عبد القادر بوداعه وانصرف بعد أن ختم حديثه معه بأن سأله إن كان رأى ثورا أبيض كان قد تخلف عن القطيع..

لم ينتظر عبد القادر الإجابة إلا أن أشرف تذكر أنه رأى عبد الدائم القطيم يسوق أمامه مجموعة من الأبقار وكان يتحدث إلى شخص قائلا: إنه وجد هذه الأبقار ترعى فى قطنه وأنه ذاهب بها إلى «السوكرة»* وكان يرغى ويزبد وهو يتميز من الغيظ، فنادى على عبد القادر الذى لم يبتعد عنه كثيرًا: عم عبد القادر.. أظن أنى تذكرت ..

عاد عبد القادر إلى حيث يقف أشرف.. ثم سأل: ماذا تذكرت؟ .

- فى طريقى إلى هنا رأيت عبد الدائم القطيم يسوق أمامه قطيعا من الأبقار، وسمعته يتحدث إلى شخص وهو يقول والشرر يتطاير من عينيه: لن أسلمها إلا لعثمان ود البخيت. «السوكرجى»..

- ومن ثم..

- ذهب فى طريقه لا يلوى على شيء، ومن المؤكد ذهب بالقطيع إلى السوكرة...

شكر عبد القادر أشرف وتمنى له التوفيق ثم انصرف وهو فى غاية

الدهشة، وقد أعجبته شجاعة هذا الصبى وموقفه البطولى والذى دلل، برغم صغر سنه، على أنه رجل مكتمل الرجولة.

كان أشرف رغم أنه كثير الاختلاء بنفسه لدرجة هى أقرب إلى الانطواء، لا سيما بعد افتقاده لصديقيه متوكلوف والهميم ود الضو الذى انشغل بمسئولياته الجديدة بعد أن تزوج، إلا أننا لن نغفل أن أشرف كان اجتماعيا من الدرجة الأولى، فما من مناسبة فى القرية، أفراحا كانت أو أتراحا إلا وتجده فى مقدمة المضيفين.. كنت تراه فى سرادق الأفراح والعزاء يقوم بخدمة الضيوف، وما من بيت فى القرية إلا ومدين له بجميل، فمثلا عربته الكارو كانت كأنها وقفٌ، ما احتاجها أحد لنقل شيء إلا وحظى بها دون أى حرج، وما من غلة قام بحصادها إلا وذهب أكثرها للجيران والفقراء، وما من مال وقع بيده إلا وكان للمساكين فيه نصيب.. ورث كل تلك القيم عن جده عبد الكريم ود الصافى الذى سارت بأخبار شهامته وكرمه الركبان.

يعرف عبد القادر هذا كله عن أشرف وأكثر، ويعلم تمام العلم أنه خيار من خيار، ويكن له مودة بدأت منذ تلك الليلة الليلاء وازدادت مع مرور الأيام، ولا يستطيع أى شخص مهما علا شأنه أن يرفض رجلًا مثل أشرف.. قال عبد القادر موجها حديثه للصافى: ابن أخيك لا يرد له طلب، ولكن أمهلونى أفكر.

نهض ثلاثتهم مودعين عبد القادر، وخرجوا من عنده على أمل أن يوافق هذا الرجل الذى ظل يرد كل من تقدم لطلب يد كريمته.. حسناء

القرية.. حنان الحورية.

قال محيى الدين بغيظ بعد أن ابتعدوا قليلا عن الدار: غريب أمر عبد القادر هذا.. ترى إلى من يريد أن يزوجها؟ لم ينتظر إجابة، فأضاف بيأس؛ كل الذين تقدموا إليه من الأعيان وغالبيتهم من أقاربه! ورغم ذلك ردهم بلا أى مسوغ.

- الرجل لم يغلق باب الأمل فى وجوهنا، بل تركه مواربا، وأحسست من لهجته أن لا مانع لديه، فقط هنالك حسابات يعرفها الرجل وحده، تحدث الصافى بهذا ثم التفت إلى أشرف الذى لم ينبس ببنت شفة منذ أن وصلوا إلى بيت عبد القادر وحتى هذه اللحظة، فسأله قائلا ما قولك فى ما جرى؟

- أنا مثلك عماه، لدى إحساس قوى أن عبد القادر سيوافق، فقد اختلست إليه النظر عندما كنت تتحدث إليه، فالتقت أعيننا وحينها قرأت فى عينيه شيئًا من الرضاء..

ضحك محيى الدين بسخرية وهو يقول؛ يجب ألا تصدق مثل تلك الأحاسيس حتى لا تفاجأ برفض عبد القادر، فالرجل برغم كرمه ونقاء سريرته وحسن خلقه، إلا أن بعضا من الغموض يكتنف شخصيته التى تتسم بالعناد.

- حدسى يحدثنى أن الحورية لن تكون لأحد غيرى، ولا ينبغى أن تكون لرجل سواى.. قالها أشرف بلهجة غاضبة وهو يلوح بيديه ويلتفت إلى خاله الذى بهت من قوة رده وردة فعله.

***

بات أشرف ليلته تلك وهو يتقلب على فراشه دون أن يغمض له جفن.. كان كل شيء حوله ساكنًا إلا من أصوات الكلاب التى يشتد نباحها فى نوبات تأتى متقطعة، أو صوت حمار ساءه عتمة الليل فعلا نهيقه المُنكَر إذ يأتى من هنا وهناك بين الفينة والأخرى.. تتداخل مع تلك الأصوات فى تناغم عجيب أصوات طلمبات الرى التى تحملها الرياح من جهة الشمال، فتشق هدوء الليل الساجى وتحرك بعضًا من عصبه الساكن.. كل هذا وأشرف مسهد يتقلب على فراشه وهو يناجى ويسامر النجيمات البعيدة التى يتلالأ بريقها اللامع فى محاولة يائسة لهتك أستار الظلام.

كنا لا نزال فى بدايات شهر مارس إذ تهب الرياح من جهة الشمال جافة، تزداد جفافا وبرودة كلما أوغل الليل.. شعر أشرف بالبرد يسرى فى جسده، فالتحف بطانيته التى كان يتوسدها تحت رأسه، إذ لم يكن يعبأ بموجات البرد القارس، فأحاسيسه كلها كانت منصبة حول حنان التى اقتحمت حياته فجأة، وغزت قلبه الذى كان مشرعا، فولجته دونما استئذان.. كان تفكيره يدور حول كيفية الظفر بها، وماذا لو أن أباها رفض تزويجها إياه، خصوصا أن أباه وأمه لم يطمئناه عندما عرفا رد عبد القادر فرجواه ألا يتفاءل أكثر مما ينبغى، وطلبا منه أن يضع فى حسبانه أن عبد القادر من المحتمل أن يكون استحى أن يرفض صراحة، وأنه أحسن وفادتهم ربما فقط تقديرا للزيارة المفاجئة التى شرفوه بها، لا سيما والرجل

مشهود له بالكرم.. كان كلما مر بهذا الخاطر انتفض كالملدوغ، وتحدث بصوت مسموع مرددا: لا لن يحصل هذا أبدا.

تمنع عليه النوم حتى الهزيع الأخير من الليل، فطيف حنان ما انفك يحلق حول سريره مناجيًا، وصورتها التى انطبعت فى سويدائه واحتوتها ضلوعه استولت على كل تفكيره، فبات يحرس طيفها فى ليلته تلك، كأنه يخشى مجهولا سيأتى ممتطيًا فرسه ويخطف منه ليلاه.

دعونا ندع أشرف يتقلب فى فراشه لنستصحبكم فى زيارة تلصصية إلى منزل عبد القادر الشيخ لنصيخ السمع للهمس الذى دار بين أهل ذلك البيت السعيد حتى نقف على ما وصل إليه تاجر المواشى العنيد فى الطلب الذى تقدم به الصافى ود عبد الكريم قبل ساعات، والذى نقل فيه رغبة ابن أخيه أشرف بالارتباط بكريمته.

***

دخل عبد القادر على زوجته، وسألها بذهن شارد وهو يمد إليها بالصينية؛ أين حنان؟

لم تلحظ بخيتة شروده، ردت عليه بغير اكتراث؛ إنها كالعادة مع التلفزيون، وأردفت فى استغراب؛ غريبة، ضيوفك لم يمكثوا طويلا!.

- أتدرى من هم ضيوفى؟ قال عبد القادر ذلك وهو يحاول التمهيد للإفصاح عما يجول بخاطره.

- ردت بخيتة وهى تنظر إلى زوجها باستغراب؛ لقد أخبرتنى من قبل، ألم تقل إنهم الصافى ومحيى الدين، وأشرف؟.. أنسيت؟.

– آه نعم، تذكرت، قالها عبد القادر وهو يحاول رسم ابتسامة مصطنعة على شفتيه حتى يدارى القلق الذى أمسك بخناقه.

مرت دقائق من الصمت حاول عبد القادر خلالها أن يجمع شتات أفكاره، أولى زوجته ظهره وقال لها ائتنى بحنان.. ذهبت بخيتة إلى غرفة حنان، فوجدها عبد القادر سانحة لإعادة ترتيب أفكاره.. جلس على أقرب سرير وجده أمامه ثم استلقى على ظهره وهو يجول بناظريه فى سقف الردهة الواسعة، شرع يفكر فى طريقة يبدأ بها طرح موضوع الخطوبة على ابنته الوحيدة ذات السبعة عشر ربيعًا، فهو لم يسألها رأيها من قبل فى كل الذين تقدموا لها، لا لأنه لم يكن مقتنعا بهم فحسب، بل لحاجة فى نفس عبد القادر قضاها، والآن وقد جاءه أشرف الذى يتمناه كل أب أن يكون زوجا لابنته، فكيف يبدأ الحديث حول هذا الموضوع، وماذا لو رفضت حنان.. أيجبرها؟ فهو يحبها أكثر من نفسه، ولم يخرج من هذه الدنيا بسواها، فماذا عساه أن يفعل إن هى أصرت على رفضها.

– حنان.. ابنتى.. صاح عبد القادر فى لهفة.. كيف دخلت دون أن أحس بذلك؟

ضحكت بمرح وهى تقول: بالباب طبعا، ثم أردفت: لقد وجدتك مستغرقا فى تفكير عميق ولم تحس بى، بل ولم تسمعنى وأنا ألقى عليك بالسلام.

– وعليكم السلام.. اجلسى.

دخلت إلى إحدى الغرف وعادت تحمل فى يدها مقعدا بلاستيكيا،

وضعته وجلست عليه قبالة والدها وقد علت وجهها الدهشة وهى تنظر إليه فى محاولة منها لاستقراء ما يدور فى خلده، ولما أن أعجزها ذلك، أمسكت بأصابع يده فى مودة وهى تقوم بـ«طقطقتها».. نظر إليها وهو يبتسم فى مودة حقيقية، ثم أشاح ببصره وقال فى حنو: حنان، لقد جاء الوقت الذى يفترض أن يكون لك بيت منفصل..

- عفوا أبى، إلى ماذا ترمى؟..

- ليس لدى الكثير الذى سأقوله لك.. ولكن أتمنى أن أراك عروسا.

- فاجأها كلامه فأطرقت فى خجل، وتسارعت دقات قلبها، فهى لم تعتد على سماع مثل هذا الحديث من أبيها قبل ذلك.. وتذكرت أشرف، فرقص قلبها طربا وازداد وجيبه وهى تربط بين زيارته قبل قليل وبين كلام أبيها، قالت فى تمنع ظاهرى وهى لا تزال ممسكة بأصابعه: أنا لم أزل صغيرة ابتاه..

سكت عبد القادر برهة قبل أن يقول بنبرة حاول أن يخفى فيها توتره: لقد تقدم إليك اليوم واحد من أعظم شباب القرية، فما رأيك؟.

- رأيى فى ماذا؟ قالتها حنان وهى تزدرد ريقها بصعوبة.

- فى الزواج طبعا!! قالها تاجر المواشى بنفاد صبر.

- قلت لك إننى ما زلت صغيرة.. وإن كنت مصرا، فأنت وما تريد!!.

- جاءنى أشرف ود. حامد بصحبة عمه الصافى وخاله محيى الدين، وهم يودون مصاهرتى، وطلبوا منى هذه اليد الحريرية..

ما إن سمعت اسم أشرف، حتى أحست بأن قلبها قد بلغ حلقومها،

إذ تسارعت دقاته بصورة محمومة من فرط المفاجأة التى ألجمتها، سافرت بخيالها وهى تسحب قبضتها من يد أبيها ثم حلقت فى سماوات فارسها الوسيم الذى يتفجر رجولة وفحولة، تخيلت نفسها بين يديه القويتين، وهو يحتضنها ويهمس لها بكلام الحب والغزل، وأحست بخدر لذيذ يسرى فى أعضاء جسدها الظامئ، رجعت بذاكرتها إلى خمس سنوات خلت حينما رأت أشرف يبتسم فى سخرية وتحدٍ مرفوع الرأس وسوط العريس يلهب ظهره العارى وسط حلبة لا يستطيع الدخول إليها والثبات فى عرصاتها سوى الفرسان الأقوياء من ذوى العزيمة والشكيمة.. تذكرت ذلك الموقف الذى انحفر فى عقلها وكيانها جاعلا من أشرف فارسا لأحلامها وهى لم تزل طفلة لم تبلغ سن الرشد بعد.. وإن تنسى فإنها لن تنسى بسمته الساحرة ساعة مد إليها بيده لينقذها من عثرتها يوم حادثة البحر، تلك البسمة التى سرقت قلبها وأذابت مهجتها، حتى حرمتها نعمة النوم.

- لم أسمع منك ردًا.. قال عبد القادر ذلك وهو ينظر إلي عينيها الساحرتين اللتين تلألأتا ببريق ساحر لم يشهده من قبل..

- حنان ما زالت صغيرة.. تدخلت بخيتة التى جاءت مسرعة من المطبخ، بعد أن سمعت ما دار بينهما من حديث.

- الرأى عند حنان، وفى اعتقادى أنه ليس هناك أنسب من أشرف أبدا.. قالها عبد القادر بلهجة صارمة ثم استطرد وهو ينظر إلى حنان، ماذا تقولين يا بنيتى؟ أيمكننى القول بأن سكوتك هذا دليل على قبولك؟

- الرأى رأيك أبى.. قالتها وهى تشيح ببصرها حياء، ثم نهضت

مستأذنة بحجة أن لديها بعض الدروس التى تود مراجعتها، لا سيما والامتحانات على الأبواب.

***

نهض أشرف على صوت صافرة النداء، وتحدث لصلاح الذى صحا لتوه قائلا: هيا يا صديقى لقد حان موعد الطابور.

رد صلاح بابتسامة باهتة وهو ينهض متثاقلا كغير عادته، لاحظ أشرف مسحة من الحزن تعلو صفحة وجهه، فسأل باستغراب: ما هذا العبوس الذى يرتسم على جبينك يا صديقى؟

- حلمت حلما مفزعا.. حلم هو أقرب إلى الكابوس.

- خير إن شاء الله..

- رأيت كأنى أسير فى مفازة ضللت فيها طريقى، وبينا كنت أجدّ فى مسيرى على غير هدى، إذا بى أسقط فجأة فى بئر سحيق..

- السقوط فى البئر ظلم من ذوى القربى.. هكذا يقول ابن سيرين.

- لم ينته الحلم بسقوطى فحسب، ففى غيابت ذلك الجب، كانت هناك حيات وعقارب جاءت وأحاطتنى من كل جانب وهى تهم بمهاجمتى، ولما أن حاولت الصعود إلى الأعلى صحوت على صوت الصافرة..

- إنها مجرد أضغاث أحلام، فلا تحفل بها كثيرا..

- لا أعتقد أنها أضغاث، ما رأيته شيء كان أقرب إلى الرؤيا..

- هيا بنا.. لقد تأخرنا..

خرجا من الخيمة، وتوجها إلى حيث انتظمت الصفوف بساحة

المعسكر المترامية الأطراف، والتى فاضت بالمجندين حتى لم يكد يبقى فيها موطئ قدم..

انضما إلى أقرب صف وجداه أمامهما، قال صلاح بسخرية وهو ينتصب فى وقفة عسكرية: أين سيذهب كل هؤلاء العساكر بعد تخرجهم؟

- قال أشرف ضاحكًا وهو يتفرس وجه صديقه العابس: إلى الجنوب طبعا..

- لا أظن.. فالوضع فى الجنوب الآن أكثر هدوءًا من ذى قبل..

- أصحيح أن الحكومة والحركة توصلا إلى اتفاق قد يفضى إلى وقف إطلاق النار؟..

- ليس وقف إطلاق النار فحسب، بل حل قضية الجنوب حلًا جذريًا.. فقد قرأت فى صحف الخرطوم فى نفس اليوم الذى جئنا فيه إلى المعسكر، أن اتفاقا إطاريا تم بين الحكومة والحركة سيكون نواة حقيقية لسلام دائم..

- إن لم تصدق النوايا فلن يكون هناك سلام حقيقى.. هنالك عدم ثقة بين الطرفين يجعل من السلام مجرد أمنية يتغنى بها الحالمون..

- الطرفان وصلا إلى قناعة بأن لا بديل للسلام سوى السلام..

- حدسى وقراءتى للأحداث يقولان بأنه لايزال هنالك ضحايا ينتظرون على الرصيف، وسوف تثبت .... وقبل أن يتم أشرف عبارته سمع صوت التعلمجى وهو يصيح فى جمعهم:

انتباااه.

انتبه الجميع، وكف الكل عن الكلام، واستوت الصفوف فى صمت رهيب كأنما على رؤوسها الطير، وبدأ التعلمجى فى إلقاء محاضرته التى يستهلها عادة بالهزء والسخرية من المجندين، ويطرح أسئلة يقوم بالرد عليها بنفسه، إذ لا يستطيع أحد أن يفتح فمه بكلمة، فالكل هنا تحت رحمته يميلون حيث يميل، ويستمعون لحديثه غير المجد بصمت هو أشبه بصمت أهل القبور.

انخرط المجندون فى أداء الحركات العسكرية بأوامر من معلمهم، فبدأت الصفوف حركتها فى خط مستقيم إلى اليمين تارة، ثم دارت واتجهت إلى اليسار تارة أخرى، ثم أقبلت إلى الأمام فى خطوات رشيقة متناسقة، ثم دارت إلى الخلف فى حركة أكثر رشاقة.. وتلى ذلك زحف على الأرض ثم نهضت الصفوف من جديد واستؤنفت.. البيادة.. فكنت لا تسمع إلا.. صوت ضربات.. البوت.. الذى يجعل الأرض تئن تحت وطأة خبطاته القوية.

استمر الحال على هذا المنوال إلى أن مالت الشمس إلى المغيب، قال أشرف لصلاح بعد أن أُذن لهم بالانصراف: ألم تلحظ زيادة جرعة الرياضة عما كانت عليه فى السابق!!

- أسبوعان مرا على وجودنا هنا.. بديهى أن تزداد كمية الجرعات، فالجسم تعود على مثل هذه التمارين، واللياقة أصبحت فى أعلى معدل لها..

- بالإضافة إلى ما تفضلت به، أظن أن لجوءهم لتكثيف التمارين هو محاولة منهم لتقليص فترة التدريب.. فالمعسكر فى ازدياد مطرد..

– ذكرتنى كلمة مطرد هذى بأحد الأصدقاء كنا قد تزاملنا فى ورشة المعلم، كان ينتقى ألفاظه بعناية شديدة، فبالرغم من أن لـ«الميكانيكيين» لغتهم ومصطلحاتهم التى يتخاطبون بها فى ما بينهم، إلا أن صديقى هذا، كان شديد الحرص على أن لا يتكلم إلا بلغة «المثقفاتية» الأمر الذى كان يعرضه لسخريتنا.. المهم أوافقك على ما ذهبت إليه، فالمعسكر كل يوم يستقبل «جيشا» جرارًا من الوافدين الجدد.

قال أشرف وهو يهم بنزع قميصه المبتل بفعل العرق بعد أن وصلا إلى خيمتهم: يبدو أن أيامنا لن تطول بالمعسكر، فالدفعة التى تم تخريجها بالأمس، اعتقد لم تسبقنا إلى هنا إلا بأيام معدودة..

– لم يتبق لنا الكثير.. ربما غدا أو بعد غد سنتدرب على فك وربط السلاح، وبعدها يكون التدريب على الرماية.. سيكون ذلك فى الأسبوع القادم أو الذى يليه..

رمى أشرف قميصه على الأرض وارتدى جلبابه ثم خرج مستأذنا صديقه الذى لم يعد إلى طبيعته منذ أن صحا على ذلك الحلم الذى يبدو أنه قلب مزاجه رأسا على عقب.

لم يكن فى وسع أشرف الصبر على واقعه الجديد الذى فرضته عليه الظروف، كما لم يكن فى وسعه أيضا التأقلم على هذا السجن المحبوس داخل أسواره الحصينة، فلقد شق على نفسه أن يعيش هنا مكبلًا، من التمرين إلى مخدعه ومن مخدعه إلى التمرين، فالوجوه هى نفسها يشاهدها عشرات المرات يوميا.. والأيام كلها شبيهة ببعض، إذ لا جديد يذكر..

علاوة على قسوة الحياة العسكرية وجفافها، وغلظة التعلمجية وتعاملهم الفظ، فلئن صبر على كل ذلك، فلأنه لا يجيد الهروب مما يجابهه من مصائب.. لقد كان بإمكانه أن يهرب كما فعل الكثيرون، ولكنه لم يعتد أن يجبن فى مثل هكذا مواقف، فكم من واقع أمر من هذا تخطاه بصبر وشجاعة وجلد.

خرج يسير على غير هدى.. نظر إلى الأفق البعيد من جهة الشرق، وهناك فى نقطة التقاء الأرض بالسماء تراصت سحب تمازجت فيها ألوان الشفق مع لون السحب الداكن، تذكر أنهم فى أوائل أغسطس، موسم قص الحشائش والطفيليات ونزعها عن محصولى الذرة والفول السودانى.. إنها بداية أغسطس إذ تتراكم السحب، وتطل شتلات القطن برؤوسها الخضراء، وترسل السماء إلى الأرض الظمأى غيثها مدرارًا.. إنه موسم الإنبات والزرع الذى تنشق عنه الأرض خيرا وخضرة ونضارة.. طفق يسير على غير هدى، غارق فى تأملات أعادت إليه ذكريات كم هى عزيزة على نفسه.

***

تعالى صوت أذان الفجر معلنا عن نهاية أطول ليلة عاشها أشرف فى حياته، فقد بات مسهدًا يترقب بزوغ الفجر على أمل أن يفاجئه القدر بخبر يسعده، ويُحقق حلما طالما ظل يراوده فى يقظته وفى منامه طوال الأيام الماضية.

لم يذكر أشرف أنه ومنذ أن صار يعى ما حوله أن أمضى ليله كله مسهدا

من غير أن يغمض له جفن.. ولم يشعر فى حياته قط أنه خائر القوى كما اليوم.. وما أحس فى وقت من الأوقات أنه عاجز ومكبل لا يملك من أمره شيئا كما هو حاله الآن، فما الذى فعلته تلك الحورية به وبعقله، وما هذا السيل الجارف من الحب الذى اكتسح فؤاده حتى أفقده توازنه؟.

نهض من فراشه منقبض الصدر، ومثقل بالهموم.. ذهب إلى الحمام فأخذ حماما دافئا، ثم توضأ بعد أن نظف أسنانه وخرج متوجها إلى المسجد.

أدى تحية المسجد ثم جلس حتى أقيمت الصلاة.. حانت منه التفاتة قبل أن يشرع الإمام فى الصلاة فرأى عبد القادر خلفه فانخلع قلبه، إنه لم يعتد رؤيته فى مسجد حيهم هذا؟ ترى ما الذى جاء به إلى هنا؟ تساءل أشرف بينه وبين نفسه ثم دخل فى الصلاة بفكر تائه إلى أن قرأ الإمام «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» هدأ قليلا واطمأن قلبه وسكنت نفسه، واستبشر خيرا بتلاوة هذه الآية الكريمة.. أكمل صلاته وقد أحس فى صدره ببعض الانشراح.. جلس فى مكانه إلى أن أشرقت الشمس، قام وصلى ركعتين ثم انصرف متوجها إلى داره.. فى طريق عودته وقبل أن يصل إلى داره لقى عبد القادر وهو يمتطى حمارا وأمامه قطيع من الخراف.. سحب عبد القادر اللجام فتوقف الحمار وحيا أشرف الذى طار لبه وهو ينظر فى عينى عبد القادر الذى بادره قائلا: كنت أنوى المرور على أبيك وأنا فى طريقى إلى السوق، ولكن طالما التقيتك فسأؤجل ذلك إلى

ما بعد نهاية السوق، واستطرد قائلا: بلغ أباك إننى موافق، مبروك عليك حنان يا أشرف.. قال ذلك ثم انتهر حماره واستأنف مسيره تاركا أشرف فى حالة من الذهول ما بين مصدق ومكذب.

ارتفعت الشمس قيد رمح أو يزيد.. كان الجو صحوا كغير عادته فى مثل هذه الأيام، فأفنان أشجار النيم التى تزين جل بيوت القرية تمايلت مع الرياح الخفيفة التى هبت من جهة الشمال، وتلألأت أوراقها شديدة الاخضرار والشمس تعكس عليها أشعتها الذهبية وهى تستقبل أسراب العصافير التى أقامت مهرجانها اليومى وهى تشدو بأهازيجها على إيقاع الصباح.. الشوارع.. الأزقة الملتوية التى تتداخل مع بعضها كأنها متاهة ليس لها بداية ولا نهاية.. بيوت الطين وحيشانها التى سلبتها عوامل الطبيعة مساحيقها التى كانت تغطى تجاعيدها.. لم ير هذه الأشياء التى تشكل بأبعادها لوحة الحياة فى قريتهم القابعة عند المنحنى فى أحضان النيل الأزرق تتألق مثل تألقها هذه الساعة.. زرقة السماء وصفائها فى هذا الشهر، وفى مثل هذه الأيام تحديدا ظاهرة لا تحدث إلا نادرا، فمارس هو شهر الرياح السافيات التى تثير الأتربة والغبار، فهل معنى ذلك أن الكون بأرضه وسمائه وكائناته يبارك خطوبته؟!.. نيمة عبد الكريم العتيقة التى شهدت أحداثا عظيمة طوال العقود الستة الماضية، تلوح له بأغصانها الزاهية الخضرة كأنها تحييه وتشاركه فرحته، تسع وعشرون عاما لم يحس بفرحة كالتى يحسها الآن بين ضلوعه، صحيح أن الأحزان لا تعرف إلى روحه المتفائلة ونفسه السمحاء سبيلا، وصحيح أنه من القلائل

الذين يجيدون التغنى للجمال سيما وهو المزارع الذى يمضى جل وقته بين الخضرة وانسياب الجداول وخرير مياهها، ولكنه الآن يرى الكون كل الكون كأنه روضة غناء غشيها الربيع فتفتحت أزهارها الضحوكة وأثمرت أشجارها الوريفة.

كادت أن تطفُرَ من عينيه دمعة وكلام عبد القادر يرن فى أذنيه.. مبروك عليك حنان يا أشرف.. هل صحيح أن الحورية ستكون من نصيبه، إنه لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه!! تاه فى تأملاته، فرآها بعين خياله فى ثوبها الأبيض الشفاف، أمسك بكفيها المرتعشتين اللتين تزينتا بنقش الحناء وهو ينظر إلى عينيها النجلاوين بوله، قبلها على جبينها، مرر شفتيه على شفتيها حتى أحس بحرارة أنفاسها، سرت فى روحه نشوة أنسته ما حوله.. أفاق من تأملاته على صوت عبد الدائم القطيم وهو ينتهره معاتبًا على عدم رده السلام، ابتسم وهو يعتذر بدبلوماسية ثم أسرع يحث الخطى ليزف إلى والديه الخبر.. كان أول من وقعت عليه عيناه لحظة ولوجه البيت هى والدته التى كانت فى طريقها إلى غرفة أبيه وهى تحمل إليه شاى الصباح.. أقبل عليها بوجه متهلل.. حياها بابتسامة عريضة ثم دلف معها إلى غرفة والده.. ألقى بتحية الصباح ثم جاء بمنضدة وضعها أمام والده ثم خرج وعاد يحمل كأسا.. صب لنفسه شايا ثم جلس صامتا لا يدرى من أين يبدأ وماذا يقول، إلى أن فاجأه أبوه سائلًا: أراك متهللا على الرغم من الإرهاق الذى تبدو سيماه واضحة على وجهك، فما هو سر هذا الانشراح؟

– ليس هناك سر.. كل ما فى الأمر أن حنان ستصبح زوجتى.

– أوافق عبد القادر؟ صاح حامد غير مصدق وهو يزدرد جرعة من الشاى ضل جزء يسير منها طريقه إلى القصبة الهوائية مما جعله يسعل بصورة كادت تقضى على بهجة اللحظة.

– لقد لقينى قبل قليل وزف إلى بالنبأ، وسيزورك اليوم..

ألجمت الفرحة رقية فظلت تنظر إلى أشرف تارة، وتارة أخرى إلى زوجها وهى تستمع لحديثهما غير مصدقة، قال أشرف موجها حديثه إليها: لم تدلِ بدلوك يا أماه!!.

كانت رقية ومنذ أن بلغ أشرف الخامسة والعشرين من عمره تلح عليه فى مسألة الزواج، فهى كأى أم تحلم بأن ترى ابنها عريسا يُزف إلى قفصه الذهبى، فما وجدت سانحة إلا وتحدثت مع أشرف عن الزواج، وكان يُحزنها تمنعه غير المُبرر، وأشد ما كان يخيفها أن ترحل دون أن يحقق لها مرادها، فقالت وعيناها تشرقان بدموع الفرح: لقد فاجأتنا بهذا الخبر الذى ظللت انتظره سنين عددا، ولا أعتقد أن هناك أمًا فى هذه البسيطة هى أسعد منى اليوم، واستطردت وهى تمسح دمعتين أشرقتا بها عيناها: أسال الله أن يبارك لكما ويجمعكما بخير.

قال حامد ووجهه يضيء كقنديل أُسرج فى غرفة شديدة الظلام: يجب أن نحدد موعدا للزواج.

– لنؤكد الخطوبة أولا. فكما جرت العادة سأدعو نساء الحى ونقوم بزيارة أهل العروس، ومن المستحسن أن يكون معى مبلغ من المال هدية للعروس «قولة خير»، قالت رقية ذلك ثم أردفت: وعلى أشرف أن يسافر

إلى «البندر» وينتقى لعروسته «شبكة» تليق بها كعادة ليس لها شبيه فى القرية.

– أرى أن يتم الزواج فى يونيو بعد أن نكون قد تحصلنا على عائدات القطن، قالها أشرف بنبرة متفائلة والبشر يطفح من وجهه الذى بانت عليه آثار السهر، واستطرد ضاحكا وموجها حديثه لأمه: أبشرى، سأجعل رأسك مرفوعا وسأختار للعروسة ما يناسبها.

– أوافقك الرأى لا سيما والقطن يبشر بعائد مجزٍ هذا العام، فليباركك الله يا بُنى، لقد ضحيت بدراستك وشبابك من أجل إسعاد واستقرار الأسرة، ولم تألُ جهدا فى خدمتها طوال هذه السنوات، أسأل الله أن يسعدك ويسدد خطاك، قال حامد هذا بتأثر بالغ ثم طلب من أشرف أن يدنو منه، وحين دنا منه احتضنه وطفق يقبل جبينه فى مشهد رائع برهن به حامد على شدة امتنانه وعرفانه بالجميل لابنه الذى لولا كفاحه لتعذر على الأسرة الحصول على ما يُسَدُّ به الرمق.

***

أحد عشر كوكبا..

طافت بخيال أشرف تلك الذكريات وهو يطوف أرجاء المعسكر إلى أن غربت الشمس، فقفل راجعا إلى خيمتهم وعند مدخلها وجد صلاح وهو يهم بالخروج بعد أن سمع المؤذن يرفع عقيرته مناديا أن حى على الصلاة.

ذهبا سويا وأديا صلاة المغرب، وبعدها غادرا المسجد وتوجها إلى رفاقهما الذين تحلقوا فى حلقة كبيرة استعدادا لتناول العشاء.

تتكون مجموعتهم من أحد عشر فردا من مختلف أنحاء البلاد، من الشرق والغرب والوسط والشمال والجنوب، وهى تقريبا المجموعة الوحيدة بالمعسكر التى تضم أحد عشر شخصا، فبقية المجموعات لا يزيد عدد أفرادها عن العشرة، تم ترتيبها منذ اليوم الأول لوصولهم، تعارفوا هنا إذ ضمهم المعسكر فأصبحوا أصدقاء، يخرجون إلى التمارين سويا ويقفون فى الصفوف بعضهم بجانب بعض.. يتناولون وجباتهم فى إناء واحد، ويُغسلون ملابسهم فى آن واحد، لا يفرقهم إلا النوم إذ يسكنون فى عنابر مختلفة.. تشابهت ظروفهم فتآلفت أرواحهم، وكل واحد منهم كان مثالا صارخا للظلم الذى حاق بالشباب فى تلك الفترة

التى شهدت تحرير مدن الجنوب الواقعة فى قبضة الحركة الشعبية، وكلهم ضحايا السياسات التعسفية التى كان ينتهجها النظام، ولكل واحد من هؤلاء التعساء قصة تتمزق لها نياط القلوب، وعلى قاعدة أن المصائب يجمعن المصابين فقد اجتمع هؤلاء الفتية على الألفة والمودة.. زبدة القول أنهم أصبحوا كالجسد الواحد الذى إذا اشتكى منه عضو، تداعت له بقية أعضاء الجسد بالسهر والحمى.

وصل أشرف وصلاح إلى حيث جلس الرفاق وأخذا مكانهما بعد أن ألقيا بتحيتهما على الجمع .. جلسا صامتين كغير العادة، فصلاح الممراح ما زالت تداعيات الحلم الذى رآه فى منامه تمسك بتلابيب روحه المرحة، فقد كان ملح الثلة التى اعتادت على قفشاته الطريفة التى طالما أنستهم واقع وجودهم بالمعسكر، ومسحت عنهم ألم البعد عن الديار، أما أشرف فقد عرفنا ما كان يعانيه من ألم وهم وهو يستعيد ذكرياته بذلك الحنين.

كان الرفاق يتحدثون عن محاولات الهروب التى يقوم بها البعض على الدوام، وكيفية ضبطهم والعقوبات القاسية التى يتعرضون لها.

قال. دينق«بلكنته المعهوده»: تجربة مريرة عشتها البارحة، فقد أمضيت ليلى كله منتصبا تحت وابل المطر وقصف الرعود، وأردف ابن الجنوب الذى أجبرته ويلات الحرب على النزوح إلى الخرطوم: كنا ثلاثة «مستجدين» تسللنا مع حلول الظلام والتقينا دون سابق موعد عند المكان الأشد ظلاما خلف مكاتب الإدارة فى الجهة الغربية من المعسكر.. بدأنا فى التسلق وقبل أن نصل إلى قمة السور تناهى إلى أسماعنا صوت

يصرخ بنا قائلا: «ثابت» واستطرد صاحب الصوت بلهجة حادة: أى حركة سأطلق النار بلا هوادة.. تيقنا أن الرجل صادق فى ما يقول، فتسمرنا فى أماكننا جرّاء الرعب الذى تملكنا إلى أن أمرنا بالنزول.. نزلنا رافعى الأيدى، فما كان من الحارس الذى ظهر فجأة كأنما انشقت عنه الأرض، إلا أن اقتادنا أمامه وبندقيته تكاد تلامس رؤوسنا ثم ذهب بنا إلى حكمدار المعسكر فكان ما كان.

سأل «بدر الدين» باستنكار: لماذا العبث؟ ألم تكونوا على علم بعقوبة الهروب من المعسكر؟

- أعلم تماما، وقد رأيت من قبل كيف فعلوا بمن حاول ذلك، ولكن إحساسى بحوجة ابنىَّ اللذين تركتهما يتضوران جوعا إلى وجودى بجانبهما هو ما جعلنى أفكر فى تلك المغامرة.

تذكر أشرف كم من واحد بالمعسكر ترك أبناء له لا عائل لهم غيره، وكم من ابنٍ غاب عن والدته المسنة التى ليس لها ابن سواه، وكم من أب فى هذا المعسكر خرج وبنوه يتلهفون لعودته، وكم واحد مثله ترك مريضا له بالمستشفى، والكثير الكثير من المظاليم الذين جيء بهم دون النظر إلى ظروفهم، تنهد فى ألم وهو يقول فى محاولة لتعزية نفسه ورفيقه: كلنا فى الهم شرق.

قال صلاح موجها حديثة إلى دينق وقد أنساه أنس الرفاق بعض ما علق فى نفسه من كآبة: يبدو أنكم لم تخططوا جيدا ولم تحترسوا، فمن يريد الهروب لابد أن يمهد لكل خطوة يخطوها نحو هذا الهدف، والأفضل لمن

أراد أن يغامر أن يتحسب لصحوة الحراس وإلا فلا يجازف حتى يضمن غفلتهم.

- كل ذلك فعلناه، فعندما حانت لحظة الصفر لم يكن هنالك ولا حارس واحد، ولا أدرى كيف رآنا ذلك الحارس الذى قلت لكم إنما ظهر فجأة كأنما انشقت عنه الأرض، قالها دينق ضاحكا رغم المرارة التى كان يتحدث بها.

- رد صلاح بسخرية: ربما لديه قرنا استشعار!!

ضج مجلسهم بالضحك.. وقال بدر الدين ابن بورتسودان الذى جاء إلى الخرطوم بحثا عن العمل: قرنا استشعار، أم عينان مركبتان؟

تواصل الضحك فقال دينق: كلاهما لدى ذلك الدعى وإلا لما رآنا فى ظلام مثل ظلام ليلة البارحة الحالك ..

- تحدث أحمد لأول مرة، وهو من أبناء الشمال جاء إلى أم درمان ليبيع ما جادت به نخلاته من محصول التمر، وقد كان ينوى الزواج بعد العائد المجزى الذى تحصل عليه وأسعار التمر ترتفع إلى أعلى معدل لها فى الآونة الأخيرة، إلّا أن حملة من الحملات إياها لم تمهله حتى يرجع إلى موطنه، فقد وقع فى قبضتها ثم جيء به إلى المعسكر، قال فى أسى: زخات المطر أرحم من الجحيم الذى ترسله شمس الظهيرة.. أربع ساعات وأنا منتصب كالعمود تحت حرارة الشمس الحارقة، وكل ذلك لمجرد التفاتة بدرت منى أثناء «رفع التمام».

- عقوبتهم قاسية، وفيها شيء من التعسف والتشفى، قالها بدر الدين

وهو يتحسس كدمة فى جبينه أصيب بها جراء عقوبة لم تحتملها بنيته الضعيفة فخر على الأرض مكبا على وجهه.

– رد صلاح بجدية لم يعهدها أعضاء مجموعته من قبل: ليس تشفيا، تنهد قليلًا قبل أن يواصل فى حديثه الجاد: فى اعتقادى أن ما نحسه من قسوة فى التدريب والعقوبات وغيرها إنما هى صقل لشخصية الجندى حتى يستطيع مجابهة أقسى الظروف التى قد تصادفه.. فالمعارك والحروب مثلا تتطلب شخصية فولاذية لا تعرف اليأس، ولا تقهرها الظروف كيفما كانت قسوتها، ولا تستسلم للهزيمة مهما ادلهمت الخطوب.

– تذكروا يا رفاق أننا هنا لسنا فى نزهة خلوية.. سوف تكونون حماة للوطن، فإذن لابد أن تخشوشنوا. ففى ميادين الحرب ما هو أشد وأقسى مما نعيشه الآن، قالها «آدم» ابن الجنينة الذى عادة ما يميل إلى الصمت، واصل حديثه وهو يلوح بيديه المعروقتين: ليقارن كل واحد منكم شخصيته قبل وبعد مجيئه هنا ستجدون أن تغيرا كثيرا طرأ علينا، لقد صرنا أكثر صبرا، وأشد عزيمة، وأقوى شكيمة.

– لم يكن بإرادتنا، بل أُرغمنا على ذلك، فالكثير منا غير مقتنع بهذا الوضع، قالها أشرف بحسرة، وهمّ بأن يضيف شيئًا إلا أنه عدل عن ذلك، خشية أن يسمعه أحد خارج «الثلة» فيشي به، كان يريد أن يتحدث عن سياسة الحكومة وقهرها للمواطن ولكنه رأى من الحكمة أن يمسك لسانه.

تحدث «خالد» الذى خلع عليه الرفاق لقب المدير، لتدبيره أمور

المجموعة، فقد اختير بالإجماع ليمثل المجموعة فى إدارة شئونهم، وهو من أبناء شرق سنار، فى العقد الثالث من عمره، وفد إلى الخرطوم بحثا عن تأشيرة خروج يهرب بها خارج البلاد، وقبل أن يحصل عليها تم القبض عليه وجيء به إلى المعسكر، قال فى ضجر محاولا تغيير دفة الحديث: فى اعتقادكم متى سنخرج من هنا؟.

- وما الفرق؟ هل تعتقد أنك سترجع إلى أهلك؟ رد صلاح متهكما، ثم مضيفا: ستخرج من هنا إلى أحراش الجنوب.

- على الأقل سننال قسطا من الحرية..

- وما طعم الحرية مع قعقعة السلاح؟!!.

- نعم ليس هناك حرية وأمان مع قعقعة السلاح.. لقد شهدت ويلات الحروب بنفسى ورأيت كم هو حجم الدمار والخراب الذى تخلفه تلك الحروب، والأشد مضاءة هو ما تتركه من دمار فى النفوس، قالها دينق بمرارة شديدة وهو يتجول بعينيه الضيقتين فى وجوه الأصدقاء التى حجبت معالمها أستار الظلام.

- حتما سترفرف حمائم السلام فى سماء الوطن، وستخضر أغصان الزيتون إذا ما قدم الطرفان بعض التنازلات، فقط هل ستصدق نوايا أولئك الذين يقتاتون على جماجم الضحايا. قال أشرف ذلك وأتبعه بقوله وهو ينظر مليا إلى الأفق الممتد إلى ما لا نهاية: ما زال هناك مزيد من الضحايا.

جيء بالعشاء ووضع بينهم فتحلقوا حوله وبدأوا يتناولونه بنهم رغم

رداءته، قال صلاح فى سخرية لا تخلو من مرح وهو يرفع بيده إلى فمه رغيفا محروقا مع عدس مسلوق: ومع ذلك تقبلون عليه بشراهة.

رد بدر الدين ضاحكا: نحن فى عرفهم ليس إلا قطيع من البهائم!!.

– ليس إلى هذه الدرجة، قالها «أحمد» وهو يلفظ حجرا كان قد التقمه مع الطعام..

– إنهم يقولونها صراحة، وكثيرا ما رددوها على أسماعنا.. وكل ذلك بدواعى التعود على الصبر وتهذيب النفس وما إلى ذلك.. قالها «المدير» بامتعاض شديد وهو يجاهد فى ابتلاع الطعام الذى وقف فى بلعومه..

تدخل صلاح متهكما وقد عادت إليه روحه المرحة: كلوا من غير ما تعليق، فليس بالخبز وحده يحيا «العسكر».

– بل بالبندقية والراجمات.. قالها أشرف رافعا يده عن الطعام وهو يشعر بالامتلاء رغم قلة اللقيمات التى تناولها.

تدخل أحمد موجها حديثه إلى صلاح: كيف لا نعلق وأضراسنا عجزت عن المضغ بعد أن «أضرسها» طحن هذا «الحصرم» أقصد الحجارة؟

– قال بدر الدين ضاحكا واللقمة فى فيه؛ الحجارة التى هرستها ضروسى تشيد بيتا..

– رد صلاح بسخرية وهو يلعق أصابعه؛ إلا إذا كان بيت نمل!!

ضحك الشباب وتواصلت تعليقاتهم الساخرة إلى أن فرغوا من الطعام.. كانوا يحسون بمتعة حقيقية فى جلستهم اليومية تلك، والتى

عادة ما تكون بعد غروب الشمس وتستمر حتى قرب موعد الطابور المسائى.. فكانوا يستعرضون ما كان فى يومهم من مفارقات درجوا على مشاهدتها ومعايشتها منذ قدومهم، ويناقشون المستجدات فى المعسكر، ويطرحون رؤاهم وأفكارهم ويحكى كل منهم عن ماضيه وبلده وأهله حتى أضحى كل واحد منهم كتابا مفتوحا للآخرين.

بلغت الساعة الثامنة والنصف مساء، ويعنى هذا أن موعد الطابور المسائى قد أزف، ولم يبق على ساعة الصفر- كما يحلو لهم أن يسمونها إلا نصف ساعة فقط، هب رفاق السلاح وذهبوا فى اتجاه صهريج المياه، فغسلوا أيديهم وتوضأ منهم من توضأ ثم ذهب كل إلى مقره ليستعد إلى طابور المساء.

فى الطريق إلى مقرهما قال أشرف لصلاح؛ إننى أحس بإعياء وغثيان شديدين حتى لأكاد أن أتقيأ، وقبل أن يتم حديثه تأخر عن صاحبه قليلا وبدأ يستفرغ ما فى جوفه حتى تقيأ عشاءه كله.. جلس على الأرض الرطبة وهو يشعر بدوار وثقل فى رأسه فقال لصلاح الذى وقف ينظر إليه بإشفاق: يبدو أنها مبادئ ملاريا.

- لا أظن ذلك.. فأنت منذ يومين لم تأخذ كفايتك من النوم، وأضاف صلاح وهو يمد بيده ليساعده على النهوض: إنه مجرد إرهاق.. هيا انهض..

نهض أشرف بمساعدة صاحبه واستأنفا سيرهما إلى أن وصلا مقرهما، قال صلاح: يجب أن تأخذ قسطا من الراحة، فأنت بلا شك مرهق، وإن

لم تكف عن كثرة التفكير فستسوء حالتك أكثر.

- سأحاول ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

استلقى أشرف على فراشه ويداه على بطنه وأغمض عينيه مسترخيا فى محاولة للاحتفاظ ببعض قوته الخائرة استعدادًا لبرنامج الطابور المسائى.

ظل على حالته تلك إلى أن سمع صافرة النداء، فهب واقفا وارتدى ملابس التدريب وخرج إلى حيث تراصت الصفوف وبدأ البرنامج المسائى الذى استمر حتى منتصف الليل.

انطلقت الجموع وعادت إلى مقارها وبدأ السكون يعم أرجاء المعسكر إذ أوى الكل إلى مخدعه، خلت ساحة المعسكر إلا من بعض التعساء الذين أوجبت أخطاؤهم أن يؤدبوا بعقوبة حرمتهم نعمة أن يأووا إلى فراشهم.

مرت الأيام تباعا حتى بلغوا أسبوعهم الخامس فى المعسكر، وأثناء هذه الفترة كان أحمد وعلى قد زارا أشرف مرتين وزفا إليه فى إحداها نبأ خروج حنان من المستشفى، وجاء خلالها أيضا الباشمهندس «مهدى» يبحث عن شقيقه صلاح فحاول تخليصه وإخراجه من المعسكر إلا أن صلاح رفض الرجوع مع أخيه رغم إلحاح الأخير، ويذكر أشرف أنه سأل صلاح باستغراب عن سبب رفضه ترك المعسكر، لا سيما وأن مهدى قد قدم ما يشفع لإعفائه من الخدمة العسكرية حين أثبت بالدليل القاطع أنه مقيم بالسعودية، فكان رد صلاح الأكثر غرابة. لقد أحببت حياة المعسكر، وأقولها بكل صدق عز على أن أفارقكم، خصوصا وأنه لم يتبق على تخريجنا سوى بضعة أيام.

جوبا: البؤس والبؤساء

ها هى جوبا قد ظهرت معالمها.. نحن الآن على مشارف المدينة، صاح السائق وهو يرفع قدمه عن دواسة الوقود إتقاء لمطب ظهر أمامه فجأة..

انتبه أشرف لحديث السائق ففتح عينيه، أدهشه منظر الطبيعة الرائع.. أشجار الأبنوس العالية تعانق فى رقة أشجار المانجو شديدة الاخضرار.. المساحات الواسعة التى كستها الخضرة والتى توحى كان الأرض فُرشت ببساط أخضر، وأمامهم لاح فى الأفق البعيد جبل الرجاف يعانق غيمة سوداء اتكأت على قمته.. أحس أشرف براحة وهو ينظر إلى الطبيعة حوله برغم الألم الممض الذى ظل يزداد حينا بعد حين.. حين رأى جوبا لأول مرة يوم ترحيلهم من مطار وداى سيدنا، لم يتبين معالمها جيدا، فقد هبطت بهم الطائرة فى مطارها الساعة الثالثة صباحا، ووجدوا فى انتظارهم ناقلات الجنود التى لم تمهلهم ليلتقطوا أنفاسهم، فغادرت بهم إلى توريت قبيل بزوغ الفجر.

اعتدل أشرف فى جلسته ثم سأل السائق: كم يبعد مركز المدينة من هنا؟

- عشرة كيلو مترات تقريبا..

- إذن أسرع بنا، فقد بلغ الألم منتهاه..
- سنكون هناك خلال خمس عشرة دقيقة..
- أتوجد فى المستشفى إمكانات لعلاج الحالات الخطرة؟
- غالبية الجرحى يتم علاجهم هنا.. فقط الحالات المستعصية هى ما يتم تحويلها إلى مستشفى السلاح الطبى بأم درمان..
- حالات مستعصية مثل ماذا؟
- العمليات الجراحية الكبرى..

لم تمض دقائق حتى وصلت السيارة إلى مركز المدينة.. كانت الشوارع خالية تماما من المارة، اللهم إلا من بعض أطفال الشوارع الذين يهيمون على وجوههم فى أسمالهم البالية، أو العطالى الذين ضاقت بهم بيوتهم فلفظتهم إلى قارعة الطرق ليفترشوا أرصفتها تحت الأشجار اتقاء لزخات المطر.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف النهار بقليل عندما بلغت السيارة القاعدة العسكرية لمدينة جوبا، تحدث السائق مستعرضا معلوماته كأنه مرشد سياحى، أو قل كأنه أستاذا يحاضر تلاميذ له فى حصة الجغرافيا: هذه جوبا عاصمة وسط الاستوائية وأكبر مدن الجنوب على الإطلاق.. تقع على النيل الأبيض، ومناخها استوائى شديد الحرارة نهارا، وشديد الرطوبة ليلا.. غالبية سكانها من قبيلة البافاريا، بها عدد لا بأس به من المستشفيات والمراكز الصحية، ويعد مستشفاها العسكرى من أكبر المستشفيات على المستوى الخدمى والذى يبعد عشر دقائق على

اليمين من هذه القاعدة الضخمة التى تضم كل وحدات القوات المسلحة تقريبا.. وعلى اليسار من هنا يقع مطار جوبا الذى يربط المدينة بالعالم.

كان أشرف يستمع إلى السائق وهو ينظر حوله إلى معالم المدينة التى تحولت غالبية البيوت فيها إلى أطلال بفعل الحرب التى امتدت لتسع عشرة سنة دونما انقطاع، تواترت الأسئلة على ذهنه وهو يجول بعينيه المرهقتين فى المناظر البائسة التى خلفتها تداعيات الحرب؛ من ذا الذى أحرق جوبا وجلس على تلال الرماد يعزف بسخرية لحن الفناء، ومستمتعا بمنظر حمامات الدماء والأشلاء الممزقة؟، من هذا النيرون الذى عاث فى مدن الجنوب نكالا وحرقا وتقتيلا وتهجيرا؟ وأى من طرفى النزاع هو نيرون هذه المحرقة اللعينة؟ إن من نكل بالجنوب بكل هذه البربرية لا ريب فى أنه أشد وحشية وسادية وسيكوباتية من نيرون روما.. وعلى الرغم من روعة وسحر الطبيعة، إلا أن أشرف لم يرَ فى جوبا إلا دموع الثكالى، وزفرات الأرامل، وأحزان اليتامى.. جوبا عيون غائرة، ونظرات تائهة، ووجوه عابسة، ونفوس تعيسة ومضطربة أرهقها البؤس والقلق والتوجس.. جوبا أحلام تبددت وتكسرت على صخرة طمع وجشع ووحشية الإنسان.. جوبا وكل مدن الجنوب قاطنوها مجرد ظلال أنس فتك بهم التوتر والخوف والرعب والمسغبة قبل أن تفتك بهم حمم الراجمات وسعير المدافع.

على ماذا يتقاتل الناس؟ سؤال طرحه أشرف على نفسه مستعرضا تاريخ الحروب البشرية منذ فجر التاريخ وإلى يوم الناس هذا.. فهل هى

شهوة السلطة وحب الزعامة والتملك؟ أو هى الأنانية والحقد والحسد؟ أو هى تلك الأشياء مجتمعة؟.. ما أبشع الإنسان حين تتخلى عنه إنسانيته، وما أقبحه وحش عندما تتقمصه تلك الروح الشيطانية فينزع عنه أقنعة الخير والسماحة والمحبة، لينزع إلى ارتداء أقنعة الشر والقبح والكراهية.. لقد برع على مر العصور فى صنع أشد أنواع السلاح فتكا ليقتل به أخاه دون أن يطرف له جفن، وعجز عن صنع وسيلة واحدة يزرع بها سلاما دائما يجعل من الأرض التى يعيش على ظهرها واحة للخير والمحبة، إن الشيطان نفسه ليعجز أن يأتِي بأفعال درج بعض البشر على فعلها.

مستشفى جوبا العسكرى، نظر أشرف إلى اللوحة أعلى البوابة الحديدية الضخمة التى توقفت السيارة أمامها، فحمد الله على وصولهم بعد تلك الرحلة الشاقة التى عانى فيها الأمرين.. فتح حارس الأمن البوابة وسمح لهم بالدخول فتحركت السيارة إلى الداخل وتوقفت أمام قسم الطوارئ.. ترجل أشرف بمساعدة السائق، فوجد صعوبة فى المشى.. نادى السائق على ممرض كان يقف بجانب الباب فجاءه يهرع إليه، أمسك الممرض بأشرف وذهب به إلى الداخل إلى أن أوصله إلى أحد الأسرة.. وما كاد يجلس على السرير حتى استلقى على ظهره وهو فى حالة إعياء تام.

لم تمض بضع دقائق حتى جاء الطبيب ومعه الممرض الذى ساعد أشرف على الوصول إلى السرير.. حياه الطبيب، ثم طفق يلقى عليه بعض الأسئلة وهو يقوم بالكشف عليه.. كان أشرف شاحب الوجه،

فقد نزف جرحه بلا توقف منذ إصابته ليلة البارحة، أمر الطبيب الممرض بنزع الشاش عن الجرح.. ذهل الطبيب وهو يعاين مكان الجرح، كان جرحا غائرا بعمق خمسة أو ستة سنتيمترات مع تهشم فى عظمة الترقوة.. سأل الطبيب أشرف وهو يتحسس ما حول الجرح كأنه يبحث عن شيء: منذ متى وأنت على هذه الحال؟

- الحادية عشرة من مساء الأمس تقريبا ؟

- هل تم إسعافك على الفور؟

- مجرد إسعاف بدائى تم على يدى أحد رفقاء السلاح، فالمسعفون الحقيقيون لم نرهم إلا بعد أن أسفر الصبح.

- عندما تم تنظيف الجرح ألم تلحظ وجود شظايا مثلا؟.

- لا، ولكنى أشعر وكأن العيار النارى كله الآن داخل كتفى.

شك الطبيب بوجود شظايا داخل اللحم، فأمر الممرض بأن يأخذ عينة من دم أشرف لمعرفة فصيلته، ومن ثم الذهاب به إلى فنى الأشعة لأخذ صورة من مكان الجرح، وقبل أن يغادر طلب الطبيب من الممرض أن يمنح أشرف بعض المسكنات بعد أن يقوم بتنظيف الجرح.

غاب الممرض لبضع دقائق قبل أن يعود ومعه لفافة من الشاش الأبيض وقطعة كبيرة من القطن الناعم، وبعض منظفات الجروح، والمطهرات، ومصل الفورتركس.. أخذ قطعة من القطن الناعم وصب عليها قدرًا من المنظف وضغط بها على موضع الجرح عدة مرات قبل أن يرمي بها إلى سلة كانت أمامه، ثم أخذ قطعة أخرى وصب عليها كمية

أكبر فى هذه المرة، ثم وضعها على الجرح وقام بلفه بمهارة يحسد عليها، وبعد فراغه من تطهير الجرح وتضميده قام بأخذ عينة من الدم أولا ثم قام بتطعيمه بذلك المصل ثانية، ثم خرج بالعينة وتوجه بها إلى المعمل.

بدأ الألم يخف شيئا فشيئا إلى أن سكن تماما، وبعد لحظات جاءه ذات الممرض وطلب منه أن يتبعه إلى غرفة الأشعة.

نهض متثاقلا وتبع الممرض الذى كان يسير بخطى حثيثة داخل الردهة الطويلة التى تطل عليها أبواب عنابر المستشفى.. لحق بعد جهد جهيد بالممرض الذى كان ينتظر فى آخر الردهة أمام باب غرفة الأشعة، فولجاها بعد أن أُذن لهما بالدخول.

تم أخذ عدة صور من مكان الجرح والمنطقة المحيطة به، وبعدها رجع أشرف إلى سريره خائر القوى، ولم يكد يستلقى حتى غط فى سبات عميق، إذ إنه لم يذق طعم النوم طوال ليلة البارحة.

أفاق من نومه بعد نحو ساعتين بعد أن زال مفعول المسكن، وعاد الألم إلى ما كان عليه من قبل وأحس بحرارة جسمه تزداد ارتفاعا، وكتفه يكاد ينخلع من مكانه من شدة الألم.

أظهرت صور الأشعة أن هناك شظايا عديدة استقرت بين ثنايا اللحم مما يحتم إجراء عملية مستعجلة، سأل الطبيب وهو يقوم بفحص الصور وموجها سؤاله إلى الممرض: أين نتيجة فحص الدم؟

- ها هى ذا أمامك على الطاولة..

أمسك الطبيب بالورقة، وقرأ ما كان مدونا عليها، فكما جاء فى تقرير

فنى المختبر، فإن فصيلة دم أشرف هى «أو نيجاتف» وهى فصيلة من الندرة بحيث يتعذر إيجاد متبرعين.

بدا الطبيب منزعجا فرفع رأسه وأمسك بسماعة التليفون وأدار قرصه عدة مرات.. انتظر لعدة ثوانٍ قبل أن يأتيه الرد من الطرف الآخر.

- ألو.. سلام عليكم..

- وعليكم السلام .. معك الرائد طبيب أحمد المهل، من مستشفى جوبا العسكرى ..

- مرحبا.. تفضل دكتور..

- صلنى باللواء فاضل عز الدين..

واللواء فاضل عز الدين هو قائد الحامية العسكرية بجوبا، طلبه الطبيب ليمده بمتبرعين عسى أن يجد من بينهم من يحمل فصيلة «أو نيجاتف»..

جاءه صوت اللواء من الطرف الآخر محييا: السلام عليكم دكتور أحمد..

- وعليكم السلام.. مرحبا سعادة اللواء.

- لدينا جرحى بالمستشفى جيء بهم من توريت، وفيهم من يحتاج إلى عمليات مستعجلة..

- وكيف أساعدك؟

- نحتاج لكمية من الدم، فهل لك أن ترسل لنا بمتبرعين؟

- سيكونون بطرفك فى غضون ساعة..

- كل الشكر سعادة اللواء..

- كلنا جنود فى خدمة الوطن..

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء حين وصلت المستشفى مجموعة من العساكر قوامها ستة عشر فردًا، بعث بهم قائد الحامية العسكرية حسب وعده للطبيب أحمد المهل.. جاءوا يسبقهم حماسهم ويتقدمهم عريف سأل عن الطبيب المعنى فأرشدهم إلى مكتبه أحد الأطباء.. دخل العريف وحيا الرائد طبيب تحية عسكرية، ثم أعلن عن وصول جماعة المتبرعين.

أخذت عينة «الهيموقلبين» من الستة عشر فـردًا، أجرى عليها الفحص، فكانت نتائجها كلها تختلف إلا نتيجة واحدة تطابقت مع فصيلة دم أشرف.

ظل أشرف يتقلب فى فراشه والألم يزداد لحظة إثر لحظة، منحوه للمرة الثانية مسكنا خفف من غلواء الألم قليلا إلى أن أعلن عن دخوله غرفة العمليات.

وفى طريقه إلى غرفة العمليات، ومن على نقالة كان يدفع بها أحد الممرضين، رجع أشرف يستعرض بعضا من شريط حياته والأحداث المثيرة التى انطبعت عليه.

فى إندايه كلثوم الدلالية..

أواخر يونيو من العام 2001 وأمسية زانها القمر الذى توسط قبة السماء، أمسية لا تأتى فى العمر إلا مرة واحدة، قال أشرف بصوت خافت وهو يتملى وجه حنان الذى يضاهى القمر ضياء: لم أتصور أن حلمى بالفوز بك سوف يصبح حقيقة.

ردت حنان هامسة بحياء والنسيم يتلاعب بخصلة تدلت على جبينها: وأنا لم أصدق أن مجرد صدفة يمكنها أن تمنح إنسانا أغلى ما تمناه فى حياته.

– هل أفهم من حديثك أننى أغلى ما تمنيتى. قالها أشرف وهو ينظر إلى القمر الذى انفلت برشاقة من سحابة حاولت أن تغطى وجهه..

– إن أنسى فلن أنسى تلك الليلة التى رأيتك فيها وأنت تقف وسط الحلبة كالطود، وسوط العريس يلهب ظهرك، وسط زغاريد النساء اللائى أطلقن لعقيراتهن العنان احتفاء وإعجابا بثباتك الذى حير كل الحاضرين.

– عرس من كان ذلك؟.

– عرس الهميم ود الضو.. أحسست يومها بشيء اعتمل بين ضلوعى.. شيء لم أدر كنهه، ولم أتبين ملامحه حينئذ لأسميه، كان يمنحنى ذلك الشيء طاقة ونشوة وسعادة فائقة وأنا ابنة الاثنى عشر عاما، كبر معى ذلك الإحساس

مع الأيام والسنين، فأدركت أننى وقعت فى شراك الغرام، كان كلما رأيتك ازداد غرامى بك وتمدد.. كنت أسعد وأشقى به فى آن، أسعد عندما أحلق بأجنحة خيالى فى فضائك الرحب، فكم تمثلت فى أحلامى فارسا يأتينى على ظهر حصان فيخطفنى لأسافر معه إلى عالمه الذى شيدته قصور من نور.. كنت أسعد أيما سعادة حينما أغرق فى تلكم الأحلام، وأشد ما كان يسعدنى رؤياك وأنت جالس على حافة النهر تمارس هوايتك التى أحببتها لأجلك.. لم تكن الأسرة بحوجة لخدمتى بالسقيا ولكننى كنت أتحايل عليها كى أراك، وكنت أحزن عندما لا تأتى، وأشد ما كان يحزننى عدم إحساسك بى.

مسح جبينها بمودة والقمر يمرق كالسهم من بين فكى سحابة كانت قد رمت بسترها عليه، وطبع قبلة على خدها الأملس ثم سأل فى ذهول: وهل كنت طوال تلك السنين تكابدين آلام الجوى لوحدك؟

نظرت إلى عينيه النبيلتين وهى تتحسس شعره بأصابعها، فأحست بأن الاضطراب الذى يصيب كل عروسة فى ليلة زفافها قد بدأ يتلاشى، وأن صدره العارى هذا بما يحويه من حب وحنان والذى جعلت منه وسادة اتكأت عليها، قد بدد مخاوفها تماما كما يبدد البدر ركام الغيوم، فقالت بمكر غريزى وهى تمشط شعر رأسه بأطراف أناملها التى تضاهى المخمل نعومة: هل فكرت فى غيرى؟

- لم أفكر فى الزواج البتة إلى أن سرقت فؤادى ذات أصيل حورية نزلت إلى الأرض من الفردوس..

ابتسمت فى دلال وتشابكت أيديهما وتاها فى قبلة طويلة والقمر يرسل

نوره مباركا ونسمة خريفية تهب على مخدع العروسين، وأشرف مع شهرزاده كأنه فى ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة.

لو وضعوا سعادة كل الناس منذ بدء الخليقة فى كفة، وسعادته فى أخرى لرجحت كفة سعادته لحظتئذٍ، فحوريته الآن بين يديه يبثها وتبثه لواعج الغرام.. يضمها بشغف الواله.. ويغرق فى لجج عينيها الساحرتين، ويسكره نشرها الذى يضوع من بين سبائب شعرها الأسود الفاحم.. يتناجيان.. يتسامران.. قال لها منتشيا وحرارة أنفاسه تكاد تحرق وجهها القمرى: أحس بأن الحياة منحتنى أكثر مما أستحق.

ردت هامسة وهى تلثمه بشغف: بل أنا التى منحتنى أكثر مما أستحق، فهذه الأحضان كم سهرت وأنا أتحرق توقا إلى دفئها وذلك عندما أغرق فى خضم أحلامى وأتخيل نفسى بين يديك فأرفع بيدىّ وأضمها لأجد نفسى احتضن الفراغ.. أشرف أنا التى يجب أن أقول ما قلته أنت.

ضمها إليه حتى كاد أن يهشم ضلوعها وهو يسمع اسمه تنطقه لأول مرة، والقمر يرسل نوره بعد أن كسب معركته ضد السحب التى سافرت أشلاؤها منهزمة إلى الأفق، ونسيم يونية الناعم الذى يأتى من الجنوب حاملا رائحة التراب الذى مزجته أمطار «الرُّشاش» تدفق على البيوت التى اتكأت على سكون الليل فنامت بعد أن أرهقها ضجيج النهار الصاخب.

ظلا على ذلك الحال يتناجيان ويتاسمران ويتبادلان القبل حتى بلغا قمة ما ينتهى إليه زوجان فى الليلة الأولى من زواجهما، تحسس جبينها برفق وقال لها برقة فى محاولة منه لكفكفة دموعها، وتخفيف حدة الألم الذى ظهرت آثاره على

قسمات وجهها الفاتن: لم أكن لأجرؤ لو لم أحس بذلك الشغف الذى أبرقت به عيناك عندما تعانقنا طويلا، مضى فى اعتذاره قائلا وقد قطب جبينه وعقد ما بين حاجبيه وعلت صوته نبرة أسف: لقد أغرانى تجاوبك وسكوتك بالمضى قدما حتى وجدتنى كالثور الهائج فى مستودع الخزف.

همست فى إغراء مصطنع لتدارى نوبة الألم الذى ألم بها: لو لم تفعل لاتهمت قلبى بالعمى، وللمته على سوء الاختيار، فأنت أول وآخر رجل طرق بابه، واستطردت فى دلال وغنج وهى تتملى وسامته المثيرة: لقد فعلت ما كان يجب فعله.

زادت كلماتها من رغبته، وتفجر فى نفسه بركان من الشبق، وهم بأن يعود ثانية ليخمد ثائرة الشهوة البهيمية التى تمكنت من عقله، إلا أن سور الألم التى ظهرت على قسمات وجهها، وعشقه الجنونى لها، حالا بينه وبين ما اشتهت نفسه، مما حدا به أن يكبح من جماح رغبته، ويكتفى بضمها إلى صدره بكل ما أوتى من حنان، وهو يتذكر وصية صاحبه الهميم ود الضو محذرا إياه من الوقوع فى مغبة العنف، ولكن بعد فوات الأوان.

تحدث الهميم ود الضو حديث العارف المجرب وهو يوصيه، وكان آخر المغادرين من الذين ذهبوا مع أشرف فى سيرته زفته ـ التى ضمت كل شباب وشابات قريته التى احتفلت بزواجه كما لم تحتفل بزواج أحد من قبل: ترفق بعروستك وتلطف بها ما استطعت، وإياك أن تتسرع فى عملية الإيلاج، كما يجب أن تتجنب العنف وإلا لرغبت عنك زوجك، استطرد الهميم بنبرة حميمية وهو يحملق فى عينى أشرف اللتين اتسعتا حدقتاهما حتى كادتا

تخرجان عن محجريها وهى تبرق شهوة، وتلهفا، وحيرة، وتوترا: أرجو أن تضع كلامى هذا نصب عينيك، فأنت بتولٌ لم تقرب النساء من قبل، قال الهميم عبارته الأخيرة بنبرة ساخرة، ثم واصل حديثه فى جدية وهو يصف لصديقه أماكن الإثارة فى المرأة، وكيفية تفجير مكامن هذه الإثارة إذا أراد أن يصل مع عروسته إلى جماع ممتع ومثالى وفاعل حتى يسعدا بزواجهما.. كان أشرف كما قال الهميم ود الضو، لم يقرب فى حياته امرأة قط، دعاه متوكل ذات نزوة لمرافقتهما هو وصديقهما الهميم إلى الإندابة التى كانا يترددان عليها مع الكثير ممن استهوتهم حياة الهلس والمجون من أهل القرية، كان ذلك قبل شهور من قصة حبس متوكلوف وتعذيبه من قبل جهاز الأمن والتى قرر بعدها السفر إلى أسمرا والانضمام لصفوف المعارضة، وهذه قصة أخرى سنفسح لها المجال فى مكان آخر عندما نأتى إلى الحديث عن الصداقة التى جمعت أشرف بالهميم ود الضو، ومتوكلوف.

قلنا إن أشرف دعى من قبل صديقه وكان ذلك بإيعاز من الهميم الذى عجز عن إقناع أشرف بالسير فى هذا الطريق الذى سلكاه هو ومتوكلوف منذ أن كانا تلاميذ بالمرحلة الثانوية، رفض أشرف الدعوة بكل ما أوتى من عزيمة، ألح عليه صديقه حاثا إياه على التخلى عن تزمته ومثاليته التى أقعدته عن التمتع بمباهج الدنيا، ومزينًا له باطل ما كان يصنعانه هو والهميم من معاقرة للخمر، ومعاشرة للنساء وخلافه من المجون، مضى متوكلوف الذى لا يجد حرجا فى الإفصاح عن ما يفعله من ضلال، والمتعة التى ينشدها فى إشباع غرائزه البهيمية، مضى فى محاولاته إقناع صديقه قائلا؛ إن سويعاتنا هذه

التى نحياها فى دنيانا ينبغى أن نعيشها كما يحلو لنا، وأن نطلق لأنفسنا العنان، ونتركها على سجاياها، ولا نلجمها عن ما يعنّ لها من فعل قد يكون سببا فى إسعادها، استطرد متوكلوف بنبرة ظهرت فيها شهوانيته بصورة جلية: علينا أن نشبع رغباتنا ولا نحرم أنفسنا من الملذات والمتع الحسية والتى هى جزء أصيل فى تكويننا السايكولوجى.. كان متوكل ينسج حول أشـــرف أحابيلـــــه الشيطانية بكلامه المعسول، وعباراته الرنانة تلك، فمتوكلوف بالإضافة إلى شهوانيته التى لا يستطيع كبحها، اشتهر بقوة الحجة وامتلاكه ناصية البيان ومقدرته العجيبة على الإقناع وإن كان بالباطل نفسه، لذلك كان يخشاه طلاب المؤتمر الوطنى بالجامعة ويتحاشون جداله فى أركان النقاش، فمنذ دخوله الجامعة وحتى تخرجه لم يفز منسوبو المؤتمر الوطنى بمقعد واحد من مقاعد الاتحاد، كان أشرف شديد المراس، فقد أصر على موقفه مفندا كل المسوغات الفارغة التى ساقها متوكلوف، ليس ذلك فحسب، بل أغلظ لصديقيه القول لإثنائهما عن طيشهما النزق، ومذكرا إياهما بتحريم القرآن للخمر والزنا صراحة، وأن أخلاقه وما تربى عليه من قيم ومثل لا يسمحان له بفعل ما يقومان به وما يودان القيام به الآن، تدخل الهميم بعد أن عيل صبره، فصاح مغاضبا، وكان إذا غضب ارتعش الجزء السفلى من جانبى شاربه الكث الذى يتدلى إلى ما تحت الشفة السفلى، وضاقت مؤخر عينيه الواسعتين التى ورثهما عن خاله عبد القادر الشيخ حتى تبدّى للناظر إليه كأنه أحوص، وفاحت من إبطيه رائحة كرائحة مبيد الروجر النفاذة؛ إلى متى ستظل على تعنتك هذا؟ الحياة ليس كلها لهث وكدح وأشغال، من

الحواشة إلى الكارو ثم إلى البيت والعكس، اخرج إلى العالم من حولك لترى كيف يعيش الشباب حياتهم، قال الهميم كلامه هذا بنفاد صبر، وأردف فى حنق حقيقى؛ كن رجلًا كالرجال، ودع عنك هذا الذى لا يصح إلا للنساء، ومضى فى حديثه المستفز قائلا وهو ينظر فى عينى صديقه: انزع هذه الطاقية عن رأسك وضع مكانها طرحة أو خمارا، فإنها أليق بك وبأمثالك، قال عبارته الأخيرة فقط ليستفزه، فهو يعلم أن صديقه ليس له صنو من الشباب الذين فى سنه، لا فى نخوته، ولا فى شجاعته، ولا فى صبره على الشدائد، فهو كما يقول أهل الوسط «زول حارّة» أى رجل مواقف، مضى الهميم فى محاولاته اليائسة وقد أشاح ببصره عن عينى صاحبه اللتين بدأ يتطاير منهما الشرر، وأحس بأنه قد بالغ فى استفزازه. الأمر الذى ربما أدى لإثارة حفيظته، فتراجع عن حدته قليلا وقال بنبرة رقيقة: صديقنا دعانا لنحتفل معه بتخرجه على طريقته، وأبسط ما نقدمه له هو أن نلبى دعوته، لا سيما أننا لم نحضر حفل التخرج الذى أقامته جامعته.. لم يكن أشرف بحاجة لأن تذكره باستقامته، فقد شب على السير على الطريق المستقيم، إذ لم تحدثه نفسه فى يوم من الأيام على الانحراف عن الجادة رغم إلحاح صديقيه وإغرائهما الدائم له، كانا يتمنيان أن يسلك معهما طريقهما الذى اختاراه منذ زمان ليس بالقصير، فقد دأبا على الحديث معه عن لياليهما الحمراء ومغامراتهما النسائية كلما وجدا سانحة ليلهبا خياله حتى يستجيب لإغرائهما، بيد أنه كان دائم الزجر لهما، ولكن هيهات أن يزدجر من أسلم لجام نفسه للشيطان، لقد أدمن صديقاه شرب الخمر ومعاشرة النساء، والغريب فى الأمر أنه قد اعتاد منهما ذلك، فلم

يؤثر ضلالهما الذى كانا يُرسفان فى قيوده على صداقته بهما، فكان إن قبلهما على علاتهما، فهما صديقا الطفولة وزميلا الدراسة اللذان رافقاه فى جميع المراحل الدراسية، ويحملان فى جوفيهما قلبين كقلوب الأطفال فى بياضها ونقائها، كانا رغم طيشهما وضلالهما، بسيطين، مرحين، كريمين، وفوق هذا وذاك كانا موطأ الأكناف يألفهما كل من عرفهما عن قرب، وليس هناك ما يعيبهما البتة غير هذا الطيش الذى يرجو أن يكفا عنه ذات يوم عندما يعرفان طريقهما إلى المسئولية، ولأن أشرف يعلم سماحة نفسيهما اللتين تنطويان على كنوز من الطيبة والأصالة ونكران الذات، فقد توقع أن يثوبا إلى رشدهما إن امتد بهما الأجل.. والغريب أن حدسه صدق بالنسبة للهميم، فآخر كأس من الخمور البلدية التى كان يعبُّ منها بغير ما حساب، دخل جوفه الذى كل ما امتلأ صاح هل من مزيد، وآخر امرأة شاركها مخدعها بالحرام، كان قبل يوم واحد من عقد قرانه، فقد أقلع عن تعاطى الخمر ومعاشرة النساء وودع نزقه إلى غير رجعة، ومن يومها لم يُعرف عن الهميم ود الضو ارتدادا حتى لحظة كتابة هذه السطور، أما متوكلوف فقد انقطعت أخباره تماما ولا أحد من أهل قريته يعلم عنه شيئًا.

كان أشرف رغم تزمته ـ كما يرى ويدعى صديقاه ـ ورغم زجره الدائم لهما، إلا أنه ما برح يستمتع أيما متعة بمؤانستهما، ولا يجد أبدا حرجا فى الاستماع والإنصات إلى قصصهما الشائقة، ذلك أنه يجد متعة ولذة فائقتين فى متابعة تفاصيلها المثيرة، لا سيما حينما يكون الحديث عن نزواتهما، فقد كانا بارعين فى وصف ممارساتهما الدنيئة ـ كما يرى أشرف ـ لذلك كان يستمتع بمجالستهما

ويتمنى فى قرارة نفسه أن لا يكفا عن الحديث عن مغامراتها العاطفية، وليس ذلك لأنه يعيش بين الناس بأكثر من قناع، ولا يعود ذلك لاضطراب فى سلوكه، أو ازدواجية تنطوى عليها شخصيته، كلا، ولكنه ربما وجد فى تلك القصص متنفسا لرغباته المكبوتة، فهو كأى رجل لديه مشاعره وميوله تجاه الجنس الآخر، ولديه نزواته وما توسوس به نفسه من أمنيات ملحة فى إشباع تلك النزوات، ولولا استقامة فطرية نشأ عليها، وحياؤه، وإيمانه، لانقاد وراء تلك الوساوس التى أوردت صديقيه موارد الهلس واللهو والمجون، نعم كان يستمتع لدرجة الثمالة بمؤانسة صديقيه، بيد أنه لم يظهر ذلك حتى لا يغريهما ذلك فى إغوائه أكثر مما كانا يفعلان، قال ضاحكا وقد كمم أنفه وفيه ليغيظ صاحبه الذى فاحت من أردانه رائحة مبيد الروجر النفاذة: سأذهب معكما، ولكن بشرط أن أكون متفرجا فقط..

***

صاح عباس حوض الرملة فى ضيق، وقد لعبت الخمر برأسه، وهو من أساسيى الإندابة التى يرتادها لفيف من المبتلين طالبى المتعة، والمستاؤون الذين يتوهمون أن همومهم وما يحسونه من تعاسة وبؤس ستذوب وتتلاشى بمجرد ملامسة شفاههم لكأس من الخمر؛ الحكومة ضيقت على الخلق معاشهم، وصادرت أفراحهم، حتى لتكاد تصادر عنهم أرواحهم، سكت هنيهة قبل أن يستطرد وهو يرفع بالكأس إلى فيه وموجها كلامه لمحمود ود الزبير الذى جلس على حصيرة من السعف فرشت بصورة مهملة فى ركن قصى من أركان القطية الواسعة وهو يدندن بلحن قديم لم يحفظ كلماته جيدا،

فأضاف إليه بعض الكلمات غير المفهومة ألهمه إياها عقله الذى غيبه السكر، كان يدندن بلسان الثغ وبصوت أشبه بنقيق الضفادع معتقدا حسب ما أملاه عليه عقله الغائب عن الوجود أنه قد أجاد تقليد الفنان الشعبى الشهير صاحب اللحن، استطرد عباس قائلا: هذه المسكينة ويعنى بذلك كلتوم الدلالية، قبل ثلاثة أيام داهم رجال الشرطة بيتها وصادروا كل ما لديها من بضاعة، وأخذوها معهم إلى القاضى الذى حكم عليها بالجلد والغرامة وهددها بالحبس المؤبد إن عادت مرة أخرى إلى رجسها الخبيث الذى هو من عمل الشيطان على حسب زعمه، وأضاف عباس بحزن غير حقيقى خدعته به مشاعره المتأرجحة ما بين الحزن والفرح، ومؤشر عقله المضطرب الذى يروح ويغدو بين الوعى واللا وعى؛ الحكومة بعدما عجزت عن توفير سبل الحياة الكريمة للمساكين، وساهمت بشكل كبير فى البؤس الذى يعيشونه، ها هى تفاقم من أزماتهم بقطع أرزاقهم، قال عبارته الأخيرة وقد ظهرت على وجهه مسحة حزن حقيقية فى هذه المرة، وعيناه شبه المغمضتين ساهمتان إلى الأرض.

توقف محمود عن الغناء، وصب لنفسه كأسًا من زجاجة كانت أمامه لم يتبق من محتواها إلا القليل، وقال بمرح من لعبت الخمر برأسه، وهو يمسك بالكأس ويدنى بها إلى فمه؛ يا عِبْس يا أخى أنت رجل صاحب عيال. محمود يعلم أن ليس لعباس ذرية، وأسرتك فى أمس الحوجة إليك، فإياك أن تتحدث فى السياسة، وأضاف وهو يضع يده على صدره كأنه يحاول إخماد النار التى اشتعلت فى جوفه بعد أن أفرغ فيه محتوى الكأس دفعة واحدة؛ صديقك

عبد الجبار لا يقبل فى الحكومة زلة ناقدٍ، ولو كان المنتقد أبوه ذات نفسه، ثم أردف وهو ينظر بريبة إلى عبد الجبار الذى لا يغيب عقله وإن شرب صهريجًا بأكمله؛ صاحبك عبد الجبار مؤتمر وطنى يا عبس، يعنى ابن الحكومة، يعنى بإمكانه إيداعك السجن دون أن يرف له جفن، ولا يهمه أبدًا عمق الصداقة التى بينكما، ختم محمود حديثه وهو يضحك عاليًا ضحكة جوفاء اهتزت لها أرجاء القطية الواسعة، وينادى على كلتوم الدلالية طالبا مزيدا من الخمر.

- الحكومة عز عليها أن ترى الناس سعداء، لم تترك لنا شيئًا جميلا إلا وقامت بمصادرته، وأخيرا عمدت إلى هذا الذى ينسينا أنها جاثمة على صدورنا.. إنها تريد حرماننا منه، وأنا لا أتخيل نفسى من غير كأس، وعبد الجبار نفسه لا تستقيم له الحياة إلا بصحبة الكأس، قال عباس كلامه هذا بنبرة هازئة، وختمه بضحكة جوفاء وهو ينظر إلى مصطفى الثعلب الذى ارتفعت عقيرته بزئيره الشهير الذى يشبه مواء القطط والذى اعتاد على سماعه كل من ارتاد إندابة كلتوم الدلالية.

رفع عبد الجبار بصره إلى مصطفى الثعلب الذى كلما لعبت الخمر برأسه تخيل أنه أصبح أسدًا، فيزأر ويزأر، حتى يثير ضجر وحفيظة كل الموجودين بالإندابة، وحينما يشرع فى عبطه هذا لا يستطيع أحد إيقافه سوى عبد الجبار الذى انتهره قائلا؛ اختشى يا رجل، وأردف بغضب وهو يشير إلى أشرف الذى انضم هو وصديقاه إلى مجلسه؛ احترم هؤلاء الضيوف الذين يشرفون مجلسنا لأول مرة.

توقف مصطفى عن الزئير، ورفع بصره ناحيتهم بعينين شبه مغمضتين

فوقعتا على أشرف، زم شفتيه وقطب جبينه وهو يتفرس فى وجه أشرف الذى جلس منكمشا على نفسه، فصاح بنبرة شامتة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وهو لا يزال يتفرسه باستغراب كأنه غير مصدق ما تراه عيناه؛ يا جماعة ود حامد الذى عرف بالاستقامة سينحرف، ود حامد سيصبح زبونا لإندايا كلتوم الدلالية، سكت قليلا قبل أن يستطرد وهو يصفق وقد تغيرت لهجته وأصبحت أكثر جدية: يا صحاب، ود حامد اليوم فى ضيافتنا داخل إندايا كلتوم الدلالية!!، قال ذلك وقد ارتفع حاجب الدهشة لديه وهو ينظر إلى أشرف باستغراب كأنه أدرك للتو أن الذى أمامه هو أشرف ود حامد، ختم الثعلب حديثه بأن أقسم ألا يدفع اليوم أحد مليما واحدًا، وأكد أن شراب القوم وعشاءهم سيكون الليلة على نفقته احتفاء بالوافد الجديد.

كان هؤلاء الأربعة، عباس المشهور بحوض الرملة، ولعل الكنية جاءت من كونه لا يرتوى أبدًا من الخمر مهما عبّ من دنانها، ومحمود ود الزبير، وعبد الجبار ود المحينة، ومصطفى الثعلب مع آخرين سيأتى ذكرهم فى حينه، من الأساسيين الذين لا يغيبون عن الإندايا مهما كانت الأسباب، فعباس حوض الرملة فى الثانية أو الثالثة والأربعين من عمره، ربع القامة، يميل إلى النحافة قليلا، يعمل ترزيًا فى محله الكائن داخل منزله، توفيت عنه زوجته التى تزوجها عن حب، ذهبت وتركت فى حياته فراغا لم يستطع ملؤه إلا بتعاطى الخمور.. ومحمود ود الزبير فى العقد السادس من عمره، يميل إلى القصر قليلا مع بسطة فى الجسم، وعلى الرغم من أنه فى السابعة والخمسين من عمره إلا أنه لم يزل يحتفظ بملامح شبابية، يعزز ذلك خلو شعر رأسه من

الشيب، وجبين خالٍ من التجاعيد تماما، كان محمود ود الزبير دائم الصمت ولا يتحدث كثيرا إلا أن يكون به سكر، يعمل فى طاحونة التعاون الكائنة بالقرب من البيارة القديمة، تزوج من رُمان عمة الهميم ود الضو، غير أن زواجهما لم يصمد لأكثر من عامين فانفصلا بعدها وذهب كل منهما إلى حال سبيله، تزوج بعد ذلك مرتين إلا أن كلتا الزيجتين لم يكتب لها النجاح، كره محمود النساء وأعرض عن الزواج بعد هذه الزيجات الثلاث، فأقبل مكبًا على الخمر متوهما أنه وجد فى معاقرتها كل سلواه، فكان أن أدمن الشرب حتى أضحى لا يصحو إلا ليسكر مرة أخرى، وهو من شجع الهميم ومتوكلوف على السير فى هذا الطريق المعوج، ليس لديه أصدقاء سوى شلة السكر هذه، وصداقته بهم تبدأ وتنتهى فى هذه الإندايا فقط، أما خارج الإندايا، فهو إما فى عمله، أو بمنزله الذى لا يفصله عن منزل الهميم سوى زقاق صغير.. وأما صديقنا عبد الجبار ود المحينة الوسيم القسيم فهو فى الخمسين من عمره، مديد القامة نحيفها، تزوج من ابتسام زميلته فى العمل، إذ يعملان فى قسم الحسابات فى فرع أحد البنوك الإسلامية الشهيرة، كان عبد الجبار دائم التأنق سواء فى لبسه الإفرنجى أو فى زيه البلدى، وكان أكثر مرتادى الإندايا أدبا وهدوءًا، لا تؤثر الخمر فى عقله مهما أفرط فى الشرب، يحترمه كل الرواد بسبب أدبه وكرمه وحسن معاملته للندامى، وربما خوفا منه لأنه ابن الحكومة كما يحلو لمحمود ود الزبير أن يطلق عليه، ابتلى بالإفراط فى معاقرة الخمر لا بسبب نسيان مشكلة يعانيها، أو استخفاف بحرمتها، كلا، أو هكذا كان يبدو لمن لا يعرفه، فكثير من الناس يعتقد أن انجرافه وراء الشرب إنما بحثا عن

متعة وهمية يسد بها فراغا روحيا يعانيه أغلب الذين طغت على حياتهم أدران المادية البغيضة، ولكن ربما كانت لدى عبد الجبار مشكلة يعاني ويلاتها، فلا أحد يعلم ما تنطوى عليه سريرته، فبرغم ابتسامته الوضيئة التى لا تفارق شفتيه، إلا أن مسحة حزن دفين تظهر بين الفينة والأخرى على وجهه الذى تكسوه نضرة النعيم.. وأما مصطفى الثعلب، الناقم الثائر الذى لا يعجبه أى شيء مهما خلا من عيوب.. شاب فى الثلاثين من عمره، لم يخض تجربة الزواج رغم ثراء أسرته الفاحش، فأبوه يقيم بإحدى دول الخليج إذ يعمل مستشارا قانونيا لدى إحدى شركات البترول، أكمل مصطفى الثعلب الثانوى بتلك الدولة فبعثته أسرته للدراسة الجامعية فى أواسط ثمانينيات القرن الماضى، كانت البلاد حينها مقبلة على حكم ديمقراطى بعد الانتفاضة الشعبية التى أطاحت بحكم شمولى ظل يتحكم فى البلاد ورقاب العباد لستة عشر عاما حسوما، وصل الثعلب إلى البلاد وباشر دراسته فى كلية العلوم بجامعة الخرطوم، كانت الجامعات السودانية يومئذ تمور بالندوات السياسية، وأركان النقاش التى كان يقيمها الطلبة فى الهواء الطلق، وكان الاستقطاب على أشده، فكل حزب يحاول أن يجمع حوله أكبر قدر من المؤيدين، وجميعهم بما لديهم فرحون، عصى على مصطفى فى بادئ الأمر استيعاب ما حوله لا سيما أنه لم يعتد على مثل هذه الأجواء، فلأول مرة فى حياته يجد نفسه هدفًا للمزايدات للانضواء تحت ألوية أيديولوجات متباينة تطرحها جميع الأحزاب التى فى الساحة السياسية، يمينها ويسارها، فها هو حزب الأمة بزعامة الصادق المهدى وصاحب أكبر قاعدة جماهيرية فى البلاد يطرح برنامجه السياسى الذى

أطلق عليه نهج الصحوة الإسلامية، ربما بغير قناعات حقيقية، إنما فقط تملقا لجماهيره، وها هم الاتحاديون تحت قيادة زعيم طائفة الختمية محمد عثمان الميرغنى يقدمون رؤاهم حول إمكانية قيام دولة إسلامية بطرحهم لبرنامج الجمهورية الإسلامية، فقد يكون فى ذلك ترياقًا يوازى المد الإخوانى الذى يحاول به الإسلاميون الذين التفوا حول برنامج الشريعة تحت مسمى الجبهة الإسلامية القومية بقيادة الدكتور حسن عبد الله الترابى ابتلاع جماهير تلك الأحزاب التقليدية، وقد رأى الثعلب فى هذه البرامج مجرد مزايدات تحاول بها الأحزاب اليمينية خطب ود الجماهير للوصول إلى الحكم، فكان أن أولى ظهره لأحزاب اليمين، وأقبل على قبيلة اليسار يلتمس فى أحزابها ما يوافق رؤاه وأفكاره وتطلعاته كشاب منفتح العقل، بيد أنه لم يجد إلا مزيدا من المزايدات والمكايدات، وكان يمثل تلك الأحـزاب؛ التيار الناصرى، والبعثيون، والشيوعيون، وبعض الأحزاب الصغيرة التى تبحث لها عن موطئ قدم لتقدم نفسها، وقد رأى الثعلب أن أحزاب اليسار بمختلف مشاربها تلتقى جميعها فى إيمانها بالاشتراكية، وفصل الدين عن الحياة السياسية.. إذًا وباختصار غير مخل هكذا كانت الأجواء التى سادت الساحة السياسية عند وصول الثعلب إلى البلاد، وكذا أوجه بعض الأحزاب وبرامجها التى شغلت الجماهير باختلاف اتجاهاتها، وقد كان قدامى الطلاب من جميع الأحزاب يعملون بشتى السبل لاستقطاب الطلبة الجدد وكسبهم للانضمام إلى صفوفهم، وكان من البديهى أن يحاولوا مع مصطفى الثعلب، وقد فعلوا ذلك فعلا، ولم تستطع أى جماعة حزبية استمالته إلى صفوفها فى بادئ الأمر، إذ إنه نأى بنفسه عن

أركان النقاش وحضور الندوات السياسية، وظل على هذه الحال فترة من الزمن إلى أن قام أحد أشهر طلاب الجبهة الديمقراطية بإقناعه بالانضمام إلى الحزب الشيوعى، وكان حدثا غريبا أن ينضم الثعلب الشاب البرجوازى إلى حزب ينادى بحياة الطبقة الكادحة ويؤمن بالاشتراكية فكرا ونهجا وهو الأرستقراطى الذى ولد وفى فمه ملعقة من ذهب.. تخرج مصطفى الثعلب فى بداية حكم الإنقاذ وقد تخصص فى علوم الأحياء الدقيقة، وصنفه منسوبو النظام الجديد من معارضى الحكومة على خلفية مواقفه السياسية المعادية للجبهة الإسلامية أيام دراسته الجامعية، فكان أن عوقب بعدم استيعابه فى أى من مستشفيات الدولة، فافتتح فى قريتهم مختبرًا طبيًا صغيرًا بجانب المركز الصحى العتيق، نال تصديقه بمساعدة صديقه عبد الجبار، فظل يعمل فيه منذ تخرجه وحتى لحظة زئيره هذه، مفضلا الدخل المحدود الذى يوفره مختبره على الهجرة، فقد أعجبته الحياة هنا فرفض السفر خارج البلاد رغم إلحاح والديه المستمر باللحاق بهما فى مقر هجرتهما.. لا نستطيع أن نختم حديثنا عن مصطفى الثعلب قبل أن نذكّر بأنه هو من كان وراء انضمام متوكل عثمان إلى الحزب الشيوعى، وهو أيضًا من أطلق عليه لقب متوكلوف، ذلك اللقب الذى أضحى ملازما لمتوكل كظله حتى أصبح لا يعرف بغيره، وظل يناديه به جميع من كان يعرفه من أهل القرية.

قلنا إن أشرف جلس منكمشا على نفسه، وهو يحس بعقدة الذنب بقبوله المجىء مع صاحبيه اللذين بدآ يغيبان عن الوجود بعد أن كرعا بمتعة كأسيهما اللذين قدمهما لهما عبد الجبار ود المحينة، شعر بصغار وقد خجل من نفسه

أن يكون جالسا بين هؤلاء التعساء الهاربين من الواقع الذين يبحثون عن سعادة فى زجاجة خمر، ندت عنه تنهيدة وهو يتفرس فى هذه الوجوه المظلمة التى خلت قسماتها من أى تعبير حتى أضحت أشد جمودًا من وجوه التماثيل والدمى، أصيب بالغثيان وهو يملأ رئتيه من الهواء الملوث بدخان السجائر الذى اختلط برائحة الخمر والعرق، أحس بالملل فلكز الهميم الذى كان يجلس بجانبه وهو يجيل نظره فى وجوه الحاضرين، نظر إليه الهميم وسأله فى ضيق، وكانت لا تزال به بقية من عقل؛ ماذا بك يا أشرف؟.. أجاب أشرف باستياء وهو ينظر إلى ساعة معصمه؛ الساعة الآن تجاوزت العاشرة، قال ذلك وهب واقفا وهو يقول فى ضجر سأذهب الآن، فى هذه الأثناء وقبل أن ينبس الهميم ببنت شفة، دخلت كلتوم الدلالية تحمل فى يديها كمية من الزجاج المملوء بعرق البلح، تتبعها ثلاث فتيات، حدث أشرف أنهن؛ النوارة والزينة والدهباية، أو قنابل الإندايه كما يحلو للرواد أن ينادونهن، أو .....!! كلتوم الدلالية كما يحلو للبعض ممن لا يجدون حرجًا فى إطلاق فاحش القول.. كان يعلم من خلال حديث صديقيه عنهن؛ أنهن يقمن بخدمة الرواد والوقوف على راحتهم، وتنفيذ كل رغباتهم.. ولجن خلف مديرتهن وكن يحملن سفر الطعام الذى يحرص الندامى أن يكون من صنع يدى كلتوم الدلالية.

وكلتوم الدلالية امرأة تخطت الستين بسبعة أعوام، تعلو وجهها الذى ذبلت نضارته مسحة حزن دفين، والناظر إلى ذلك الوجه الأسمر الشاحب المنهك الذى برزت عظام فكيه يدرك أن بتقاطيعه الدقيقة ملامح لآثار جمال زان فى يوم من الأيام ذلك الوجه البائس ثم ما لبث أن اندثر، لا يعلم

أحد من أى قبيلة تنحدر أصولها، قيل إنها من الرحل الذين يعبرون النيل الأزرق من جهة الشمال فى رحلة الشتاء والصيف عند حلول مواسم الزراعة والحصاد، استقر بها المقام قبل عشرات السنين هى وزوجها الذى توفى غرقا فى حادث انقلاب مركب لم ينجُ منه أحد، ترك لها زوجها ابنة وحيدة تزوجت وانتقلت إلى بورتسودان حيث يعمل زوجها حمالا بالميناء، اشتغلت كلتوم فى تجارة الأوانى المنزلية ـ ولهذا أطلق عليها أهالى المنطقة لقب الدلالية ـ كانت تجوب القرى والكنابى على ظهر حمارها، أو على ظهر البص المشهور ببص «الضهارى»* الذى يبدأ رحلته من قرية السريحة عبر الشارع الترابى الذى يشق المساحات المروية الخضراء مرورًا بقرى أزرق والنابتى وود لميض وعديد البشاقرة وود القلاب والشوبلى حتى ينتهى عند محطته الأخيرة بالتكينة، إذ تربط هذه الأخيرة تلك القرى بالطريق السريع الذى يصل مدنى بالخرطوم، كما تربطها أيضًا بالقرى الواقعة على الضفة الأخرى للنيل الأزرق، كانت كلتوم تبيع بضاعتها لنساء تلك المنطقة بالأقساط، راجت تجارتها وازدهرت فى بادئ الأمر ولكنها لم تلبث أن تراجعت خلال عامين اثنين فقط، وذلك للارتفاع المستمر لأسعار الأوانى، ومماطلة زبوناتها فى سداد ما عليهن من ديون، بالإضافة لافتتاح أحد التجار محلًا لبيع الأوانى المنزلية فى المنطقة، الأمر الذى أدى لكساد تجارتها، فتركتها ولجأت للكسب من مهنة رغم سهولتها وضمان ربحيتها، إلا أنها صعبة على النفس تقبلها لا سيما فى مجتمع ينظر إلى ذوى الكسب المشبوه والحرام على أنهم مجرمون يجب بترهم، لقد وجدت نفسها مرغمة على فعل سيجلب لها سخط الله والناس أجمعين، ولكن

ليس هنالك بد من الانخراط فى ما فكرت فى فعله، فعمرها لم يعد يسمح لها بالعمل أجيرة لدى المزارعين فى حواشتهم، ولا تستطيع أن تعمل خادمة فى البيوت، فمن ذا الذى يرغب فى خدمات عجوز فى سنها؟ لذا استقر تفكيرها على أن تعمل فى صنع وبيع الخمور وليكن ما يكون، وشرعت فى ذلك فورًا لا سيما وأن لديها معرفة لا بأس بها عن كيفية صنعها، فقد تعلمته من إحدى جاراتها من ساكنات الكمبو.

تقع إندايةَ كلتوم الدلالية فى طرف ذلك الكمبو الشهير الكائن وسط إحدى النمر من أراضى المشروع، والذى أقيمت بيوته ـ وهى عبارة عن قطاطى متناثرة ـ على مساحة لا تتعدى الثلاثين فدانا، خصصت هذه المساحة من الأرض للكمبو لعدم صلاحيتها للزراعة، وذلك لارتفاع نسبة الملوحة فى قشرتها السّبِخةُ، وارتفاعها قليلا عن المساحات المسطحة المحيطة بها، إذ يتعذر وصول المياه إليها.. بعض قاطنيه وفدوا من مناطق البلاد المختلفة مع بدايات المشروع، والبعض الآخر جاء من دول غرب إفريقيا كأياد عاملة فاستقر بهم المقام على هذه الأرض البور التى لا تبعد سوى ثلاثة كيلو مترات إلى الجنوب الغربى من القرية.

أمسك الهميم بيد أشرف وألح عليه فى الجلوس لتناول العشاء وبعدها سيكون لكل حادث حديث، صرخ أشرف فى وجهه، وهو يردد فى مقت؛ لن أنتظر ولا لدقيقة واحدة.

انتبه الحاضرون وصعدوا بأبصارهم نحو أشرف الذى عقد ما بين حاجبيه وهو ينظر إليهم بازدراء، كانوا يغمغمون بعبارات غير مترابطة ولا

تحمل أى معنى، ويتفرسون فى وجهه بأعين كانت غشاوة السكر قد حجبت بريقها تمامًا.

وضع عبد الجبار كأسه على الأرض الرملية، وهو الوحيد من بين كل هؤلاء السكارى لم تفقد عيناه الثاقبتان بريقهما، كما لم تتغير سحنته أيضًا، ولم يغب عقله عن الوجود لحظة واحدة، فقد ظل كما هو هادئ الأعصاب يشرب فى صمت كأنه يحتسى كوبا من الليمون، وربما كان أكثر وعيًا من أشرف نفسه، كان تماما كما كان يحكى عنه صديقاه، لم تؤثر الخمر فى عقله الصاحى قيد سُكرة ـ إن جاز التعبير ـ رغم أنه لم يتوقف عن الشرب منذ مجيئهم.. وضع كأسه المملوء بعرق البلح وهب واقفًا، نظر إلى أشرف وهو يبتسم بمودة فوضع يديه على كتفى أشرف وقال بنبرة رقيقة، ستتعشى معنا يا صاح، وزاد بحزم وعيناه الثاقبتان تكادان تخترقان عينى أشرف، وابتسامته الودودة لمْ تزل ترتسم على شفتيه؛ إن كنت تعتقد أن عشاءنا هذا مصدره حرام فأنت واهم، مصطفى الثعلب هو من تعهد بدفع فاتورة العشاء، قال ذلك وهو يضغط بقوة على كتفى أشرف حتى أجبره على الجلوس.

جلس أشرف مرغما، فقد كره أن يحرج عبد الجبار بعد أن أبدى له تقديرا واحتراما ظهرا فى الطريقة التى خاطبه بها، وُضع الطعام، وانقسمت الجماعة إلى فسطاطين، تحلق كل فسطاط حول مائدة رُصّت أطباقها على الأرض الرملية، كانوا نحو خمسة عشر شخصا، وجد أشرف نفسه بمعية مجموعة عبد الجبار التى ضمت بالإضافة إلى صديقيه الهميم ومتوكلوف كل من عباس ومحمود ومصطفى، واثنين لم نأتِ على ذكرهما من قبل، هما عبد الرحمن

النقلتى، وخلف الله ود النعمة، وكلاهما من أساسيى الإندايا.

كانت كلتوم وفتياتها الثلاث يقمن بخدمة السكارى بوقوفهن على راحتهم وتنفيذ طلباتهم وتوفيرها، من زيادة للطعام وجلب المياه، وقد يتبجح أحدهم فيطلب من إحداهن أن تجلس بجانبه وتطعمه بيدها، لقد فعلها خلف الله ود النعمة مع الزينة، وفعلها متوكلوف الفاسق مع الدهباية، وفعلها أيضًا الثعلب مع النُّوارة التى لم يرَ أشرف فى حياته فتاة أكثر جرأة وخلاعة منها، فقد رقصت شبه عارية فى الحفل الذى أقامه الندامى على شرف متوكلوف بمناسبة تخرجه بعد أن فرغوا من الطعام، كان المغنى الذى أحيا الحفل هو محمود ود الزبير، فقد غنى بصوته المشروخ الذى يشبه نقيق الضفادع فأطرب الندامى الذين تفاعلوا مع ألحانه النشاز كأنهم يستمعون إلى أحد أساطين الغناء فى البلاد، صاحب محمود ود الزبير فى العزف على الإيقاع متوكلوف الذى كان يضرب على جركان فرغ لتوه من «المريسة»، وقد برع متوكلوف كأنه عازف طبل محترف.. وبينما القوم فى سكرتهم يعمهون غمز عبد الجبار للنوارة بعينيه وهو يشير بسبابته إلى أشرف وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة.. كانت تراقص الزينة واحدة من الرقصات الخليعة ذات الإيحاءات الجنسية الفاضحة حين طلب منها عبد الجبار ذلك، فدنت من أشرف حتى لم يبق بينها وبينه ذراع وهى تتمايل كغصن تلاعبت به الريح، ملأ عطرها الصارخ أنفه حتى أحس بالشهوة تدب فى نفسه العطشى، استغفر الله فى نفسه ووسطها الذى يهتز أمام عينيه يكاد يلامس أنفه، كان الوحيد بين القوم الذى جلس على مقعد، فقد جلس الآخرون القرفصاء وهم يحملقون

فى رغبة محمومة إلى جسد النوارة وتقاطيعه المثيرة، ونور مصباح الكيروسين الخافت الذى وضع على منضدة عالية فى أحد أركان القطية الواسعة يقع على وجهها الذى تصرخ ملامحه بآيات الفسق والفجور، تململ أشرف فى جلسته وقد غلبت عليه شهوته، ازدرد ريقه وأشاح ببصره عنها خشية الوقوع فى فتنتها التى بدأت تنسرب فى مكامنه الذكورية انسراب التيار الكهربائى فى سلك النحاس، دنت النوارة أكثر فأكثر وهى تتطلع إلى وجهه الذى لمست فيه بحسها الأنثوى ثورة الشبق التى فضحتها تقاطيعه الوسيمة، أحس بأنه إن لم يحسم أمر وجوده بين هؤلاء اللاهين سيرتكب إثما، لذا حسم أمره وغادر بهدوء دون أن يحس به أحد سوى عبد الجبار الذى جاء إلى النوارة وطلب منها فى هدوء التوقف عن الرقص واللحاق به، ختم طلبه بأن همس فى أذنها قائلا؛ لا تتركيه يفلت، لقد أحسست بأن دواخله تمور رغبة كانت تنطق بها عيناه.

وجد طلب عبد الجبار هوى فى نفسها إذ يبدو أن أشرف شغفها حبًا، فانطلقت خلفه حاثة خطاها فوجدته قد بلغ باب الحوش فصاحت فيه بوقاحة؛ انتظر رويدا يا هذا، أريدك فى أمر أيها الوسيم..

التفت وراءه وفوجئ بشبحها يسير نحوه بخطوات راقصة، فتوقف بجانب الباب خارج الحوش وقد تسارعت دقات قلبه خشية أن تغويه بغنجها وخلاعتها وفتنتها التى ربما ساقته لارتكاب معصية طالما ظل ينأى بنفسه عن الوقوع فى براثنها، دنت منه وهى تقول فى دلال فاضح. لم الاستعجال؟ فالوقت ما زال مبكرًا.

تنحنح قليلا قبل أن يرد بصوت أجش وهو يحاول مراوقتها؛ لقد تأخرت، ولم أعتد على السهر إلى هذه الساعة، سكت قليلا قبل أن يستطرد قائلًا بنبرة مضطربة ظهر فيها أن هروبه إنما كان خوفا من فتنتها: تصبحين على خير، قالها بارتباك واضح وهم بأن يوليها ظهره، إلا أنها أمسكت بكفه قبل أن يخطو إلى الأمام وهى ترجوه أن يبقى حتى نهاية الحفل.

أحس برغبة جامحة فى احتضانها، وكفها يضغط على كفه.. يا لهول المصيبة، ما هذا الانقلاب الذى طرأ على قناعاته؟ تساءل بينه وبين نفسه.. لقد بدا وكأنه سيذعن لرغبته، فقال مماحكا وكفه الذى تعرق بفعل الصراع المحتدم فى نفسه ما زال بيدها؛ ومتى سينتهى حفلكم هذا الذى يشبه جلسة من جلسات الظأر؟، أضاف فى تأفف: الجو بالداخل أصابنى بالاختناق، صخب، وعقول غاب عنها الوعى، وروائح كريهة من دخان وخمر.. لا لا دعينى أذهب..

قالت بفرح كأنها كانت تنتظر منه مثل هذا الكلام وهى تشير إلى بيوت صغيرة من القطاطى تناثرت بصورة عشوائية داخل السور البائس المبنى من توليفة من القنا وسيقان القطن والقش؛ إذًا انتظر فى أى واحدة من تلك القطاطى حتى ينفض سامر السكارى.

كان صراخ القوم على وقع ألحان محمود ود الزبير النشاز، وإيقاع متوكلوف الصاخب الذى يماثل أصوات طلمبات المياه يصل إلى آذانهما بصورة ضوضائية جرحت هدوء الليل الذى نامت على وسادة سكونه بيوت الكمبو ذات الأسقف المدببة التى تتراءى للناظر إليها مع عتمة الليل

المظلم كأنها مدافع عملاقة وجهت نحو السماء، قال أشرف وقد حرر كفه من قبضتها وهو يتبعها إلى إحدى القطاطى؛ أرجو أن تستعجلى صديقىَّ فى إنهاء ليلتهما.

كانت تسير أمامه بخطوات رشيقة راقصة إلى أن بلغت باب القطية، دفعت بالباب وولجت إلى الداخل أمامه.. تردد قليلًا قبل أن يلج هو الآخر، فقد أشارت إليه بيدها أن تفضل.. ولج إلى داخل القطية وصراعه مع نفسه يزداد احتدامًا، لماذا لم يحسم أمره ويغادر؟ ولِمَ وافق على البقاء وانساق وراءها كالأعمى، فهل سحرته هذه البغى؟ ثم ماذا لو روادته عن نفسه؟ أيستجيب لنداء شهوته التى بلغت منتهاها، أم تراه سيصمد أمام فتنتها التى لا يستطيع أحد مقاومتها مهما بلغ من استقامة، أو برود؟..

قالت له وهى تشير إلى السرير الوحيد الذى يتوسط القطية التى لا تتعدى مساحتها التسعة أمتار: تفضل بالجلوس..

أطاعها دون أن ينبس بكلمة، فجلس وهو يتفرس فى وجهها على ضوء مصباح الكيروسين الصغير الموضوع على خزانة الملابس الصغيرة التى قبعت فى أحد أركان القطية.. طفق يفكر فى هذا الوضع الذى يمكن أن يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه.. فهذه أول مرة فى حياته يجد نفسه فى خلوة مع واحدة ليست من محارمه، لا بل ولأول مرة منذ بلوغه سن الرشد يطيل النظر فى وجه امرأة، ومن المؤكد أن الشيطان يعد الآن عدته ليوقعه فى ما ظل يغالبه طوال سنى عمره.. صحيح أنها لم تكن فى جمال الزينة والدهباية، غير أنها تمتلك قوامًا ممشوقًا وقدًا مياسا وجسدا ظامئا ينضح فتنة وإثارة.. جلست بالقرب منه

ومدت بأصابعها تتحسس شعر رأسه وهى تنظر فى عينيه بشغف، ملأ عطرها الداعر خياشيمه، وبدا صراعه مع نفسه يحتدم أكثر فأكثر، فرغبته بلغت الذروة، وليس هنالك ما يحول بينه وبين إتيانها سوى عزيمته التى بدأت تخور وهى تقترب منه أكثر وأكثر حتى أحس بحرارة أنفاسها.. ازدرد ريقه وطفق يغالب شهوته تارة بإيمانه، وخلقه، وصلاته، ونسكه، والموت، والقيامة، وتارة بتاريخه الناصع الخالى من كل دناءة ومثلبة ونقيصة رمت بالناس فى جب الرذيلة.. معركة عنيفة يدور رحاها بين الحق والباطل، ميدانها قرارة نفسه المتأرجحة ما بين الإذعان لنداء شهوته، والخوف من الوقوع فى مستنقع الرذيلة الآسن، معركة يتقهقر فيها الباطل هنيهة أمام قوة الحق، ولكنه لا يلبث أن يطل برأسه، فيعود منصتا لنداء شهوته فينزع إلى الباطل حينما تغلبه سهام عينيها الفاسقتين اللتين ما انفكتا تدعوانه إلى إتيانها فى فجور سافر، فينقلب خاسئا وهو ضعيف.

قال يرجوها: القوم فى انتظارك، يجب أن تذهبى إليهم، وأردف وهو يتمنى ألَّا تستجيب لرجائه؛ دعينى وشأنى..

ضحكت فى خلاعة وهى تردد فى استهتار كأنها قرأت ما يدور فى خلده؛ سأمضى ما تبقى من ليلتى معك أيها الجذاب، قالت ذلك ثم طفقت تنزع عنها ما كان يسترها.

اتسعت حدقتاه وقد هاله جرأتها وعدم حيائها، فقال وهو يبتعد عنها فى تمنعٍ راغب؛ أنا لست من تبحثين عنه، استطرد فى وجل؛ لن تجدى فىّ ضالتكِ..

قالت بإغراء فاتن؛ بل أنت من بحثت عنه طوال عمرى أيها الوسيم.. قالت ذلك وسحبته ناحيتها بقوة حتى التصق صدرها العارى بصدره..

قال لها وهو يحاول دفعها برفق، وقد رضخ لرغبته شيئًا ما، وإحساس بنشوة لذيذة قد سرى فى كل خلية من خلايا جسده ونهداها الثائران يضغطان على صدره ككرتين من اللهب: دعينى وشأنى، فأنا لست كصديقى.

ضحكت باستهتار ويداها تعبثان بشعره ثم قالت فى عهر زاد من فورة غريزته الثائرة التى تفجرت بركانًا من الشبق؛ لن أدعك حتى أنال منك ما تناله الزوجة من زوجها فى مخدع الزوجية، رددت حديثها هذا ببذاءة وفحش ووقاحة نترفع عن نقله ها هنا.

لقد وقع فى الفخ الذى نصبته له النوارة التى لا يستطيع مقاومة إغرائها أحد مهما أوتى من عزيمة، فها هو ينزع عنه لباس إيمانه وتقواه وما ستر عورته.. لا يدرى لماذا تذكر فى هذه اللحظة السكرية بت الجاك، ربما لأنها أول امرأة اشتهتها نفسه وتمنت وطئها فى بدايات مراهقته، أو ربما لأن النوارة صورة طبق الأصل منها خصوصا فى غنجها وذرابة لسانها واستهتارها.. كانت قد تهيأت له تماما.. كان كل شيء فيها يناديه.. عطرها الصارخ الداعر.. فسق نظراتها الولهى.. تلاحق أنفاسها اللاهثة.. تناسق جسدها المشتعل إثارة.. نسى سنواته على الصراط المستقيم، فأى صراط هذا الذى يحول بينه وبين هذه الفتنة؟ ولماذا لا يجرب ولو لمرة واحدة فى عمره، إنه ليس بملك ولا هو بقديس.. إنه بشر من لحم ودم، وطبيعة البشر الوقوع فى الخطأ والخطيئة.. إنه فى مرحلة الشباب، وفى أوج شبابه، والشباب لا يجدون حرجًا فى الانكباب

على الملذات واجتراح المعاصى، جف حلقومه وخار عزمه ومعركته مع نفسه يزداد أوارها، وأخيرا وحتى يتخلص من هذا الصراع عقد عزمه على خوض التجربة وليكن ما يكون.. دنا منها ثم جلس بين فخذيها حتى صار قاب قوسين أو أدنى.. وهمّ أن.... وفجأة سمع صوتًا أطار لبه، ما هذا؟ ولمَ فى هذه الساعة؟ أنصت فى ذعر، إنه صوت جدته السرة بت الرفاعى يصرخ فيه وشبحها يملأ فراغ القطية الكئيب؛ ما هكذا ربيتك أيها السافل، استأنفت جدته صراخها وهى تقترب منه وتقرصه فى أذنه بغضب؛ ابتعد عن هذه البغى، دعها أيها الشقى وإلا فأنا لست لك بجدة.

قفز من بين فخذيها كالملسوع.. ارتعدت فرائصه.. تلاشت رغبته.. طاشت شهوته.. هربت فحولته؟، فوجئت النوارة بموقفه فنظرت إليه وقد ارتفع حاجباها دهشة، إذ لم تستطع لبضع ثوان استيعاب ما جرى، لم تجد تفسيرًا لموقفه فظلت تنظر إليه بازدراء وهو يقوم بارتداء ملابسه.. كان يرتعش كالمقرور وقد أشاح ببصره عنها حياء، فبصقت فى وجهه ثم قالت ببغض: ماذا أصابك أيها الرعديد؟.

أجابها بارتباك وهو يرتعد فرِقا: لست أنا من يفعل ذلك، ردد عبارته الأخيرة هذه، واستطرد متلعثمًا وهو يغادر: حظا أوفر مع غيرى.

هل صحيح أنه رأى جدته السرة بت الرفاعى فى هاتيك الليلة المشئومة، أو أن شعوره بفداحة ما كان بصدده صور له ذلك؟ وإن لم تكن صورتها تلك التى رآها حقيقة، فما سر الألم الذى أحسه فى أذنه والذى بقيت آثاره لساعات بعد تلكم الحادثة التى ظلت تداعياتها تلاحقه حتى ليلة دخلته، وما هو تفسير

سماعه لصوتها؟ ما لهذا ربيتك أيها السافل.. اترك هذه البغى، وإلا أنا لست لك بجدة.. لقد رأى وجهها على ضوء مصباح الكيروسين الناعس وهى تنظر بعينيها الذابلتين إلى عورته باشمئزاز، وسمع صوتها الغاضب الذى أخافه هذه المرة، والذى طالما أحب نبراته الودودة وهى تقص على سمعه حكاويها الشائقة، وتدافع وتدفع عنه غوائل الأيام.. والغريب فى الأمر أنه ولأول مرة يشعر بلسعة الألم من قرصتها التى كان يحسها فى سابق الأيام، أيام طفولته. دغدغة لذيذة يتمنى ألا تتوقف أصابع جدته عنها وهى تقوم بمعاقبته على جرم ساذج ارتكبه.

تحسس أذنه وقد ارتسمت على فمه ابتسامة صافية وهو يتذكر جدته السرة بت الرفاعى، ووصية صديقه الهميم ود الضو فى ليلة دخلته وعبارته الساخرة. «فأنت بتول لم تقرب النساء».. تساءل فنى التخدير فى فضول وهو يهم بوضع قناع التخدير على وجه أشرف، ما سر هذه الابتسامة الجميلة وأنت مقبل على عملية؟ رد عليه وابتسامته تزداد وضاءة وصفاء وجمالًا وفنى التخدير يقوم بعمله نحوه؛ تذكرت مواقف لأعزاء كانت لهم بصمة فى حياتى، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر.. قال ذلك وهو يحس بثقل فى لسانه، ومفعول المخدر يسرى فى أعصابه المضطربة سريان الدماء فى الأوردة والشرايين.

***

معركة توريت..

فى العشرين من يوليو من العام اثنين وألفين وقبل يومين من وصول أشرف إلى المعسكر تم اتفاق إطارى بين الحكومة والحركة الشعبية بمدينة مشاكوس الكينية، يقضى بوضع حدٍ للاحتراب الدائر فى الجنوب منذ أربعة أشهر قبيل استقلال البلاد فى الأول من يناير للعام 1956.

ففى أغسطس من العام خمس وخمسين وتسعمائة وألف انطلقت الشرارة الأولى لأطول فترة حرب شهدتها القارة الإفريقية من مدينة توريت، وذلك عندما تمرد بعض الضباط والجنود الجنوبيين الذين ينتمون لحاميتها العسكرية والتى كانت تتبع آنئذٍ لقوات دفاع السودان، فقد استولى أولائك المتمردون على السلاح والذخيرة وقاموا بتصفية بعض زملائهم من الضباط والجنود من أبناء الشمال، وبعد أن نفذوا جريمتهم تلك بدم بارد ودون أن يطرف لهم جفن ذهبوا ودخلوا المدينة على حين غفلة من أهلها وحكومتها ووجهوا أسلحتهم نحو صدور التجار الشماليين، فكانت المجزرة التى أسست لحرب دامت لخمسة عقود لم تشهد خلالها البلاد اسقرارا حقيقيا سوى أعوام قلائل، وذلك حين عم فى أرجائها السلام بموجب الاتفاقية التى أبرمها الرئيس الأسبق جعفر

محمد نميرى مع متمردى الجنوب بأديس أبابا فى العام اثنين وسبعين وتسعمائة وألف؛ أى فى نفس العام الذى ولد فيه بطل قصتنا هذه.

كان جنوب السودان قبل اتفاقية أديس أبابا يتكون من ثلاث مديريات هى: بحر الغزال، والاستوائية، وأعالى النيل فجاءت الاتفاقية لتجعل من تلك المديريات الثلاث إقليما واحدا، وذلك بمقتضى أحد بنودها الذى نص على دمج المديريات الثلاث لتصبح إقليمًا واحدًا يتمتع بحكم ذاتى داخل نطاق جمهورية السودان.

ضُمنت بنود الاتفاقية فى دستور السودان، وتوقفت الحرب، وعم السلام ربوع البلاد، إلا من بعض التحركات اليتيمة هنا وهناك والتى لم تؤثر فى سير الاتفاقية إلى أن أصدر الرئيس النميرى قرارا يقضى بتقسيم إقليم جنوب السودان والرجوع به إلى ما قبل الاتفاقية، وكان ذلك على خلفية فكرة التقسيم التى طالبت بها بعض الأقليات الجنوبية خوفا من سيطرة الدينكا ـ أكبر القبائل الجنوبية ـ على مفاصل الحكم فى الإقليم، فكان أن أجريت انتخابات فى العام اثنين وثمانين وتسعمائة وألف وجاءت نتيجتها لصالح الوحدويين الذين نالوا تسعة وأربعين مقعدًا مقابل أربعة وثلاثين مقعدا كانت من نصيب دعاة التقسيم، بينما تحصلت جماعة تسمى مجموعة التغيير على ثمانية وعشرين مقعدًا.

تشكلت حكومة ائتلاف إقليمية بين دعاة التقسيم ومن يسمون أنفسهم مجموعة التغيير، مما حدا بالرئيس جعفر النميرى أن يصدر قراره بتقسيم الإقليم ليعود جنوب السودان مرة أخرى إلى ثلاثة أقاليم، وكان

ذلك فى يونيو من العام ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف وهو نفس الشهر الذى أعلن فيه العقيد وقتها جون قرنق عن تأسيس الجيش الشعبى لتحرير السودان، معلنًا تمرده على الحكومة المركزية، ومن يومها انطلقت شرارة ما سُمى لاحقًا بحرب الجنوب الثانية.. تلك الحرب التى راح ضحيتها قرابة المليونين من أبناء البلاد، كما أدت إلى نزوح أربعة ملايين جنوبى عن ديارهم، فضلا عن ستمائة ألف لجأوا إلى دول الجوار.

والغريب أن جون قرنق تمرد على الحكومة المركزية وهو فى مهمة رسمية، وذلك عندما بعثه النميرى لتهدئة خمسمائة جندى من الكتيبة 105 التى تتبع حكومة الجنوب كان قد طُلِب منهم التوجه نحو الشمال، إلا أنهم رفضوا الانصياع لأوامر قادتهم، فما كان من النميرى إلا أن بعث العقيد جون قرنق لتهدئة ثائرتهم، وبدلا من عودته إلى الشمال وبمعيته هؤلاء المتمردون، قام قرنق بالانضمام إليهم وهو يرى عدالة مطالبهم.

حارب جون قرنق كل الحكومات التى تعاقبت على حكم البلاد بعد أبريل 1985 وفى مارس 1986 إبان عهد المشير سوار الذهب الانتقالى وقع مع بعض أحزاب الشمال على اتفاق «كوكا دام» الذى تحدثت وثيقته عن الديمقراطية الحقيقية، وقيام سودان جديد خالى من العنصرية والقبلية والطائفية وجميع أسباب التميز بين فئاته المختلفة، كما اتفق الجانبان على أن يكون هنالك مؤتمر ثانٍ تناقش فيه مشكلة القوميات، ونظام الحكم، وقضية الدين، وحقوق الإنسان، والتنمية، كما اتفق الجانبان أيضا على ضرورة قيام مؤتمر دستورى تحت شعار السلام والديمقراطية والعدالة

والمساواة.. وتضمن الاتفاق فيما تضمن؛ رفع حالة الطوارئ، والعمل بدستور 1956 وإلغاء كل الاتفاقات العسكرية الموقعة بين السودان والدول الأخرى.

لم يمضِ على اتفاق «كوكا دام» الشهرين حتى أجريت الانتخابات النيابية التى فازت بالأغلبية فيها أحزاب الأمة، والاتحادى الديمقراطى، وحزب الجبهة الإسلامية.. تكونت حكومة ائتلافية بين حزبى الأمة والاتحادى الذى لم يكن طرفا فى اتفاق كوكادام.. وما إن استقر الأمر للحزبين المؤتلفين حتى تنكر قرنق لما جاء فى الوثيقة وواصل حربه ضد الحكومة المنتخبة وذلك لعدم اهتمام القائمين على أمر البلاد بما جاء فى وثيقة ذلك الاتفاق، فكان أن سقطت مدن الجنوب الواحدة تلو الأخرى حتى أوشك كل الجنوب على السقوط فى أيدى الجيش الشعبى لتحرير السودان.

فى السادس عشر من نوفمبر 1988 وقبيل سبعة أشهر من انقلاب الإنقاذ قام محمد عثمان الميرغنى زعيم طائفة الختمية بالتوقيع مع قرنق فى العاصمة الإثيوبية أديس ابابا على معاهدة صلح اصطلح على تسميتها باتفاقية السلام السودانية أو اتفاق الميرغنى قرنق، وقد نص الاتفاق على بنود لو قدر لها أن تُنزّل على أرض الواقع لجنبت البلاد ويلات الحرب التى ظل يدور رحاها طوال السنين التى تلت تلك الاتفاقية وحتى توقيع اتفاقية السلام الشامل فى نيفاشا 2005.. تحفظ السيد الصادق المهدى زعيم حزب الأمة، رئيس الوزراء حينها وتلكأ فى تنفيذ ما ورد فى ذلك

الاتفاق، ورفض حزب الجبهة الإسلامية الاتفاقية جملة وتفصيلا، لا سيما وقد ورد فى إحدى فقراتها بندٌ ينص على إلغاء قوانين سبتمبر 1983 التى تم بموجبها إعلان الشريعة الإسلامية فى عهد الرئيس النميرى، الأمر الذى أدى إلى وأد الاتفاقية وقتلها، فاستمرت الحرب حتى سقطت توريت فى أيدى المتمردين فى السادس والعشرين من فبراير 1989 أى قبل أربعة أشهر فقط من انقلاب الإنقاذ.

جاء انقلاب الإنقاذ فى الثلاثين من يونيو 1989 وقد وجد سودانًا أغلب مدن جنوبه تحت سيطرة الجيش الشعبى لتحرير السودان، فاستنفرت الحكومة الجديدة جهودها لإعادة تلك المدن إلى حظيرة الدولة، فجيشت الجيوش وفتحت معسكراتها لتدريب مؤيديها ومنسوبيها على حمل السلاح فظهر على الساحة ما يسمى بكتائب الدفاع الشعبى التى ذهبت إلى الجنوب تقاتل جنبًا إلى جنب مع القوات المسلحة، جهادا فى سبيل إعلاء راية الحق، وسحق الكفرة الفجرة.. أو كما كانوا يرددون.

بدأت الحكومة الجديدة فى استعادة المدن الجنوبية من أيدى التمرد، وفى أقل من ثلاثة أعوام، ومن خلال ما سمى بمعارك صيف العبور كان قد تحقق لها النصر فاستعادت فى بدايات وأواسط عام 1992 جل المناطق التى كانت تحت سيطرة الجيش الشعبى، بما فى ذلك مدينة توريت.

وفى الأول من سبتمبر من عام 2002 وبعد عشرة أعوام من استعادتها، سقطت توريت مرة أخرى فى أيدى المتمردين على الرغم من الاتفاق الإطارى الذى أبرم بين طرفى النزاع بمشاكوش الكينية فى العشرين من

يوليو من نفس العام، الأمر الذى أدى إلى وقف المفاوضات وتجدد القتال مرة أخرى.

رجع الوفد الحكومى من مشاكوس وأعلنت الحكومة من فورها عزمها على استرجاع المدينة، وفى أواخر سبتمبر كانت الحكومة قد بدأت هجومها الفعلى على المدينة التى استعصمت بالاستحكامات الدفاعية المتينة، وكانت أولى المعارك قد جرت فى خور إنجليز الذى يبعد خمسة وعشرين ميلا شمال المدينة، تلك المعركة الضارية التى أصيب فيها أشرف، وقتل فيها صديقه صلاح، وفى الأيام الثلاثة التى تلت معركة خور إنجليز جرت ثلاث معارك أخرى فى خور دليب وموقع لافون والخباط، وبحلول الثامن من أكتوبر كانت القوات الحكومية قد استطاعت اقتحام المدينة واستردادها بعد انهزام وتقهقر الجيش الشعبى لتحرير السودان.

***

أجريت لأشرف العملية، وتم إخراج الشظايا التى استقرت فى كتفه.. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء حينما بدأ يفيق من آثار المخدر، نظر حوله وهو يحاول أن يتذكر أين هو، أحس بثقل فى رأسه وهو يجول بناظريه فى أرجاء العنبر الواسع فوقعت عيناه على رفيقه وابن مجموعته خالد الذى كانوا ينادونه بالمدير، ولبرهة ظن أنه بالمعسكر.. كان ينظر إلى من حوله وكأنه فى حلم، حاول جاهدا استعادة أحداث الأيام الماضية، إلا أن جدارا كان قد نهض فى ذاكرته حجب عنه كل ما حدث قبل دخوله غرفة العمليات، ولما أن أعجزه استيعاب ما حوله ترك نفسه على ما كان

عليها وغط فى سبات عميق لم يفق منه إلا فى صباح اليوم التالى.

تواترت الأخبار من أرض المعركة تبشر بنصر وشيك، وفى الثامن من أكتوبر أى بعد يومين فقط من إجراء العملية لأشرف حملت الأنباء انتصار القوات الحكومية ودخولها مدينة توريت، فاهتزت جدر عنابر المستشفى بالتهليل والتكبير.

بعد مُضى خمسة عشر يومًا من تحرير توريت أحس أشرف بالتعافى وأن جرحه فى طريقه للاندمال، وبدأت آماله بالتعلق فى الرجوع إلى أهله تزداد مع إقبال كل صبح جديد، إلا أن ذلك لم يحدث، فقد انتكست حالته وبدت نذر غرغرينة لعينه تهاجم الأنسجة الحية حول الجرح الذى بدأ فى التعفن، ظلت حالته تسوء يوما بعد يوم، مما حدا بالأخصائيين الذين أشرفوا على علاجه أن يقرروا نقله إلى مستشفى السلاح الطبى بأم درمان.

وفى فجر الخامس من رمضان الذى وافق الثانى عشر من نوفمبر 2002 حط طائر المحارب بمطار وادى سيدنا، ومنه نقل إلى مستشفى السلاح الطبى.

إن نفوسنا وإن تعاظمت محنها، وتداعت عليها المصائب، وظللت آفاقها سحب الكآبة والحزن عند أشد ساعات الابتلاءات إيلاما، إلا أن رياحا من السعادة تهب من حيث ندرى ولا ندرى فتبدد تلك السحب التى تراكمت حاجبة كل جميل فى الحياة.. نظر أشرف إلى حامد الصغير الذى لم يتخط عمره الأربعة أشهر وقد أشرقت عيناه بالدموع.. إحساس غريب لم يعتمل فى نفسه من قبل وهو يقوم بضم ابنه إلى صدره.. إنه

إحساس الأبوة.. يااه، ياله من إحساس.. إحساس أنساه ألم الجرح، وارتفاع درجات الحرارة فى جسده المتهالك والتى لم تنخفض منذ عدة أيام رغم تعاطى المسكنات، إحساس بعث فيه الأمل بالشفاء رغم شعوره بدنو الأجل، فجرحه لا يفتأ يزداد تسمما وتعفنا، ولا أمل فى علاجه إلا ببتر طرفه، غير أن هنالك شبه اجماع من الأطباء على استحالة البتر من ذلك الموضع، إنه فى انتظار أجله رغم تطمينات الأطباء، وهو يعلم أن لا علاج للغرغرينة إلا بالبتر والبتر وحده.. إن رؤية حامد الصغير منحته أملا جديدا فى أن يمتد به العمر.. فهذا الشبل هو بصمته فى هذه الحياة، ويجب أن يحيا ليرعاه.. إنه صورة طبق الأصل منه.. عيناه.. أنفه.. ذقنه.. دقة تقاطيع وجهه.. أصابع يده، إنه لم يأخذ من أمه «حنان» إلا ابتسامتها ولون بشرتها، كان ينظر إليه بشغف وهو يفكر بتلك الصورة المضطربة، فينكب على تقبيله تارة، ويضمه إلى صدره تارة أخرى.. إن حياتنا لغز كبير، لغز يصعب على المرء فك طلاسمه، فها هو الآن بقايا روح فى جسد متهالك.. طاف بذكرياته.. ذهب هناك عند المنحنى واخضرار الضفتين وسحرهما، كلنا إلى زوال؛ النيل الذى يجرى منذ ملايين السنين.. قريته الوادعة التى تقبع عند المنحنى ببيوتها الطينية التى فضحت عوامل الطبيعة تجاعيدها.. أشجار النيم والسنط التى تكاد تلامس عنان السماء.. الأزقة الملتوية التى تتداخل مع بعضها كأنها متاهة لا بداية لها ولا نهاية.. الشارع الذى يشق القرية إلى نصفين بدكاكينه ذات الطراز القديم التى قامت على جانبيه.. رأى شبحه يقف أمامه، وابتسامة شامتة ترتسم على

شفتيه، أوشينا، أوشينا، أوشيييينا.. يا ود حامد أنت ولد غير مؤدب، عبد الدائم القطيم، ولؤمه، ووحدته، وعزوبيته وحديث الناس عنه.. بئر الجن .. السكرية بت الجاك، وضحكاتها الخليعة.. ضحكة الهميم ود الضو التى يهتز لها جسده كله.. لمَ اختار متوكلوف هذا الطريق المؤدى إلى القتل والحرق والدمار؟ ولم لطخ يديه بالدماء، وهو الألمعى الذى كم ذا تلطخت يده بأصباغ المداد؟!! يوما ما سوف تفتك بك الوحوش فى الجنوب، ها هى الوحوش قد فتكت به ونهشت لحمه.. كان رحيل جدته السرة بت الرفاعى التى كان كلفا بها هو أول فاجعة تصادفه فى حياته، ما كان يعرف للموت قبلها هذا الحزن الذى تتمزق له نياط القلوب، فهو أى الموت زائر يطرق أبواب الناس بعيدا عنهم، فيأخذهم إلى ذلك المكان المهجور الذى تتوسطه شجرتا الحراز والدليب اللتان تتراءان للناس عند حلول الظلام كأنهما وحشان أسطوريان نزلا من السماء ليفترسا من على الأرض.. كان رحيلها محطة انتهى عندها قطار طفولته بكل ما للطفولة من براءة وشقاوة.. كان لموتها وهو فى تلك السن المبكرة أثر بليغ فى رسم خارطة حياته في تالى سنين عمره.. فاجعة أخرى هزت كل جارحة فيه؛ موت رفيقه صلاح أمام عينيه.. ضم إليه حامد وقد تخيل نفسه فى جلسة أسرية تحت ظل نيمة عبد الكريم ذات التاريخ الضارب فى القدم، ووالده يتحدث إليه عن أخبار الحصاد الذى أزف وقته، لقد شهدت نيمة عبد الكريم ميلاده، وعاش تحت فيئها أزهى أيام طفولته مع جدته وصديقيه.. إحساس متأرجح ما بين السكينة والاضطراب، سكينة كان قد افتقدها

منذ أن أصيب، أو فلنقل منذ ذلك اليوم الذى جيء به إلى المعسكر، وما أدراك ما المعسكر، شعر بالغبن والبغض وهو يرجع بذاكرته إلى ذلك اليوم المشئوم، فأشار إلى حنان التى كانت تقف خلف أبيها وطلب منها بصوت اجتهد بأن يكون طبيعيا أن تأخذ منه حامد. تحركت حنان إلى الأمام قليلا ووقفت قبالته وتناولت منه صغيرهما وهى تنظر إليه فى جزع وقد تحدرت على خديها دمعتان عبرتا عما جاس فى نفسها من حزن وألم على ما آل إليه حاله.

كان كل من بالعنبر من الذين تحلقوا حول سريره قد أصابهم الجزع من الصورة المزرية التى كان عليها.. رقية أمه التى انخرطت فى نوبة من البكاء ولم تتوقف عنها منذ رؤيتها له.. شقيقاه أحمد وعلى.. خاله محيى الدين.. عمه الصافى.. صديقه الهميم ود الضو الذى كان أكثرهم جزعا.. صهره عبد القادر الشيخ.. جاء كل هؤلاء لزيارته عندما علموا بوجوده فى المستشفى، فكان أن فوجئوا بالتغيير الكبير الذى طرأ على شكله، فقد شحب وجهه حتى انقلبت سحنته تماما، فأصبح لونه فاقع السمرة أقرب إلى الأسود، ونقص وزنه إلى النصف تقريبا، إنهم لم يروا ذلك الشاب الوسيم الذى يتفجر نشاطا وحيوية.. كانوا ينظرون إليه فى ذهول وقد ألجمت الصدمة ألسنتهم، فلم ينبس أحدهم بكلمة منذ دخولهم عليه.. لم يحتمل أحمد رؤيته على هذا الحال فخرج وهو يجهش بالبكاء، وتبعه الهميم الذى انفجر باكيا هو الآخر، ولحق بهما الجميع ما عدا حنان، فقد بقيت بجانبه تغالب غصة سدت حلقها.. كانت تحبه

أكثر من نفسها، وكان بالنسبة لها كل شيء فى الوجود، إنه رئتاها اللتان تتنفس من خلالهما، وحبها له هو المحرك الأساسى لنبضات قلبها، ولولا وجوده فى حياتها لتوقف قلبها عن النبض.. إنه العشق بكل آهاته ووجده وحرقة صبابته.. إنه حياتها بكل تفاصيلها.. فأشرف ليس شريكًا لحياتها وأبا لصغيرها فحسب، بل هو حبيبها وأبوها وأخوها وصديقها، قالت بحزن وهى تجلس بجانبه وتمسح بيدها على جبينه بكل ما أوتيت من مودة: غدا يندمل جرحك، وترجع إلينا، ونعود نحيا حياتنا كما خططنا لها، رددت ذلك وهى تغالب دمعتين تحجرتان على مآقيها، ثم استطردت وقد أومضت عيناها النجلاوان ببريق التفاؤل والأمل؛ وهذه المرة لن نكون لوحدنا، بل سيكون بمعيتنا حامد الذى سيضفى على عشتنا مزيدا من البهجة والسعادة.

أطرق هنيهة كأنه تذكر أيامهما معا، ثم صعد ببصره نحو عينيها وقال بيأس: لا أظن أن ذلك سيحدث، لنكن واقعيين، الجرح فى موضع يستحيل معه البتر..

ـ ستعيش.. على الأقل إن لم يكن من أجلى، فمن أجل حامد.. واستطردت وهى تحاول طمأنته ومرددة بنبرة إيمانية عميقة؛ ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا.

– أظن أن الله غاضب منى، لأنه من المؤكد أن نفوسا بشرية أهقت على يدى، والله سبحانه وتعالى يقول: ومن قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا.

– القاتل الحقيقى هو من دفع بكم إلى تلك الأتون، أنتم مجرد أدوات، تؤمرون وتنفذون.. قالت حنان هذا ثم أردفت سائلة: هل كان بإمكانك مخالفة الأوامر؟.

– من المؤكد كانوا سيصمونى بالخيانة، وبالطبع ليس لها فى قانون العسكرية عقوبة سوى القتل..

– إن الله عدل رحيم وهو أعلم بما فى نفوسنا، وهو القائل: «إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورًا»، وأنا أشهد بأنك من الأوابين.

استمرا فى حوارهما الإيمانى، وطاف بهما الحديث حول ذكرياتهما، والأيام الحلوة التى سعدا بساعاتها فى عشة الزوجية، فقصت عليه باستفاضة عن حالها فى غيابه، وكيف أن حياتها صارت جحيمًا لا يطاق وهو بعيد عنها، وأن لا معنى ولا طعم لحلاوة حامد من غير وجوده، وأنها كانت تحسب الأيام بالثانية عندما كان بالمعسكر، وكيف جن جنونها حين سمعت بخبر سفره إلى الجنوب، استطردت بنبرة حزينة؛ طفقت أبحث عنك فى خبايا نفسى، وفى وجوه الخلق، كنت أهذى فى صمت؛ كيف سمحت لهم أنفسهم بأن يفرقوا بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه؟ كنت أتساءل وأنا فى حيرة من أمرى أفلا يحس أولائك الذين قادوكم إلى تلك المحرقة بفداحة جرمهم.. كنت أراك فى كل ركن من أركان البيت، بل فى كل حركة وسكنة للكون.. ندت عنها تنهيدة وهى تواصل هذيانها وقد علت صوتها نبرة شجن فقالت بصدق؛ فكرت بجدية فى اللحاق بك، إلا أننى عجزت عن إيجاد حيلة تحقق لى ما أردته.

قال لها بامتنان وهو يحدق فى عينيها الساحرتين: وهل كنتِ ستفعلينها إذا ما تيسرت لك الوسيلة..

- فى سبيل رؤياك كنت سأصلك وإن كان ذلك حبوا.. همست بذلك وهى تمسح بباطن كفها عن خدها الأملس دمعة جفلت من عينيها اللتين أومضتا توقًا وحنينًا وهيامًا.

أنساه حديثها معه وجلوسها بجانبه آلامه، فتعلقت آماله بالشفاء، فقال يرجوها بنبرة متفائلة؛ دعوة الصائم لا ترد، أرجو أن لا تنسينى حينما ترفعين أكفك عند ساعة الإفطار.

ــ وهل دعائى كله إلا لك.. رددتها حنان وقد أودعتها كل ما فى قلبها من مودة تجاهه.

انقضى وقت الزيارة، فطلب أشرف من زائريه ألا ينسوه من الدعاء، فودعوه بقلوب واجفة، ثم انصرفوا جميعهم إلا شقيقه أحمد الذى بقى معه مرافقا طوال فترة وجوده بالمستشفى.

***

أشرقت شمس الأول من شوال الذى وافق السابع من ديسمبر من عام 2002، وما كادت ترتفع عن الأفق قليلا حتى توارت محتجبة خلف غمامة ضلت زمانها لتظهر فى موسم ليس موسمها، إنها بدايات فصل الشتاء، إذ تحتفل القرية بحصاد الذرة التى تعد الغلة الأكثر اهتماما لدى المزارعين، فهى المصدر الأساسى لغذاء الناس، وليس هناك أيام يسعد فيها المزارع كسعادته بأيام الحصاد، لاسيما حينما يودع محصولاته من ذرة

وقمح وفول سودانى وغيرها مستودع غلاله.. فهذه الأشياء هى التى تمد المزارع بأسباب الحياة، بل هى حياته جميعها، فهى التى تدفع عنه غوائل الأيام من فاقة وعوز وخلافه.. وهى التى تمنحه الأمان والطمأنينة.. إنه يحيا بها، ولأجلها يحتمل حر الصيف وقر الشتاء، ولأجل نجاحها يبيت الليالى بحواشته إما ليروى زرعه لأن ظروف الرى تجبره على ذلك أحيانًا، وإما ليدفع عنه آفة الرعى الجائر الذى يقوم به الرعاة وهم يجوبون بأنعامهم ليلا بحثا عن الكلأ، فيتركونها ترتع وسط الحقول كيف تشاء، كما يحدث فى حقول القطن مثلا، إن حياة المزارع هى فى أرضه وزرعه وضرعه، وأيام الحصاد هى أعياد يعيش ساعاتها بكل ما فى الأعياد من سعادة وبهجة وفرح.

جاء العيد ووجد الناس قد فرغوا لتوهم من حصاد الذرة، وفرغوا كذلك من دفن بذور القمح التى بدأت تشق بنواصيها أديم الأرض بحثا عن الضوء والهواء، إذا سيكون العيد فى هذا الموسم عيدين، والفرحة فرحتين..

تقاطر الناس من كل أنحاء القرية فى أزيائهم الزاهية الناصعة البياض وجلسوا فى عدة صفوف على البساط الذى فرش فى المساحة الواسعة المخصصة لصلاة العيد فى انتظار أن يعلن الإمام عن إقامة الصلاة، الأطفال فى ملابسهم الجديدة يطاردون بعضهم البعض وهم يحملون ألعابهم من مسدسات وبنادق وألعاب نارية والفرحة تعلو وجوههم البريئة.. النساء فى دورهن تزينّ وزينّ بيوتهن.. الشوارع خلت من الناس حتى سكنت

حركتها تمامًا، فالكل هنا حيث موئل أفئدتهم وأرواحهم منذ عشرات السنين.. ومن وسط المصلى المترامى الأطراف ارتفعت الحناجر بالتكبير وشق هديرها عنان السماء.. القلوب فاضت بنور الإيمان فانعكس ذلك على الوجوه سكينة وانشراحًا.. إنها لوحة العيد التى ازدانت بكل ألوان المسرة والفرح..

ارتفعت الشمس قليلا وهى تجاهد فى تمزيق أستار الغيوم التى تراكمت حولها، فأسفرت على استحياء عن وجهها، غير أنها لم تلبث أن عادت لتحتجب مرة أخرى.. أزف وقت الصلاة، فنهض الإمام وصلى بالناس، وبعد أن فرغ من صلاته وقف يخطب فى الحشود، وفى نهاية حديثه وقبل أن يختم بالدعاء رأى الناس الهميم ود الضو متجهم الوجه وهو يتخطى الرقاب شاقا طريقه صوب الإمام الذى ارتفع حاجب الدهشة لديه والهميم يقترب منه.. دنا الهميم من الإمام الذى كف عن الحديث وهو ينظر بريبة إلى وجهه العابس.. دنا منه أكثر حتى وقف قبالته ثم همس فى أذنه بحديث ظهرت آثاره على الإمام فى شكل سحابة حزن كست وجهه بصورة فجائية.

اندهشت الحشود لموقف الهميم، وهى تحملق فى الإمام الذى تغيرت سحنته وألجمت الصدمة لسانه، فأطرق إلى الأرض هنيهة قبل أن يرفع أسه ويعلن فى حزن وأسى وهو يترنح من هول المفاجأة عن انتقال أشرف ود حامد إلى الرفيق الأعلى.

فجعت القرية برحيل أشرف كما لم تفجع برحيل أحد قبله، وانقلبت

فرحة العيد إلى حزن طغى على كل الوجوه، فاختفت عبارات التهنئة التى يرددها الناس فى مثل هذا اليوم، واحتلت مكانها عبارات التعزية التى طفق الناس يواسون بها بعضهم البعض.

كانت الشمس قد دنت من كبد السماء حينما وُرِىَ جثمان أشرف التراب، وأسدل الستار على حياة ذلك الشاب الخلوق الذى أفنى عمره محاربًا فى سبيل الخير والصدق والإيثار.

***

خاتمة..

قلت للهميم وأنا أشير بيدى إلى قطعة كبيرة من اللحم أعجبتنى؛ زن لى من هذى..

شغلنى ببعض الحديث الذى كنا نتجاذب أطرافه، ورأيته يدس بين طيات القطعة التى طلبتها منه بعضًا من قطع العظام وهو يقوم بوضعها فى باطن الميزان.. ظننت أنه استغل غفلتى ليغشنى، وبما أن بعض الظن إثم، فقد اكتشفت خطل ظنى عندما نقدته قيمة اللحم فأصر أن لا يأخذ ولا مليما واحدا.. قلت فى نفسى مثمنًا موقفه؛ هذا هو الهميم ود الضو كما عهدته، لم تغيره السنون، سماحة، وكرم، ونكران ذات.. إنه كصديقه أشرف تمامًا.

ذكرنى موقفه هذا بأمر كنت قد أعددت له منذ عشرة أعوام خلت، فقلت له بحماس بعد أن شكرته؛ إننى بصدد توثيق قصة حياة أشرف ود حامد، صديقك وبطل قريتنا الذى ترجل عن صهوة الحياة وهو لم يزل فى ريعان شبابه، وأريد منك أن تمدنى ببعض الأحداث التى شهدتماها معًا..

نظر إلى وقد طافت بعينيه ومضة أسى، فقال ونبرة حزن دفين علت

صوته؛ ذاك رجل لن يتكرر، أضاف وقد خنقت صوته عبرة وقفت فى حلقه وعيناه الواسعتان تغرورقان بالدموع، سأنتظرك الليلة على العشاء.

كنت قد فكرت فى كتابة قصة أشرف بعد خمسة شهور من رحيله، وكان ذلك على ظهر شاحنة تسير بنا وسط الصحراء الواسعة اتساع رقعة مطامحى، كنت حينها متجها إلى ليبيا التى عبر بنا المهربون ساحلها إلى السواحل الشمالية بإيطاليا التى غادرتها متجها إلى هولندا حيث استقر بى المقام الذى امتد لعشر سنوات متتالية لم أعد فيها إلى البلاد إلا قبل خمسة أيام فقط.

شرعت منذ وصولى إلى أمستردام فى تدوين بعض الذى كنت أعلمه عن أشرف، وتوغلت فى الكتابة برفق.. كنت أعتصر ذهنى لتذكر بعض الأحداث التى شاهدتها بنفسى، أو تلك التى التقطتها أذناى وأنا أجالس ثلاثتهم عند اجتماعهم اليومى فى بيت رمان عمة الهميم ود الضو.. استدعيت كل ما فى ذاكرتى فى ما يخص المواقف والأحداث التى واجهت أشرف فى حياته، فحضرتنى أشياء وغابت عنى أشياء وأشياء.

كنت أصغرهم بثمانية أعوام، فثلاثتهم ولدوا فى عام 1972، بدأت فى حضور جلساتهم وأنا لم أزل صبيا لم أبلغ الثانية عشرة بعد، وقد يستغرب البعض مصاحبة صبى فى سنى لشباب يكبرونه بأعوام ثمانية، إلا أن علاقتى الحميمة بابن عمى أشرف وثقته فىَّ، وعدم ممانعة صاحبيه، شجعانى على حضور تلك الجلسات التى لم يكن لها مثيل فى قريتنا كلها.. كنت أتعجب من عمق صداقتهم وحبهم ووفائهم لبعض، وأستغرب

ويستغرب غيرى للآصرة المتينة التى ربطتهم، لا سيما وهناك تباين ظاهر بين أشرف وصاحبيه، فأشرف يتسم بالاستقامة، والجدية، والميل إلى الصمت، عكس صاحبيه اللذين يتسمان بالاعوجاج، والنزق، والميل إلى الإفصاح عن مكنون نفسيهما دونما حياء أو وجل.. لا يذكر أحد فى قريتنا أنه رأى أحدهم يسير على انفراد.. كانوا يذهبون إلى المدرسة سويا، ويؤبون منها بصحبة بعض.. يستذكرون دروسهم معًا.. وأى بيت من بيوت أحدهم هو بيت للآخَرَيْن، باختصار إن أبطالنا أشرف، والهميم، ومتوكل، كانوا كالجسد الواحد، الأمر الذى جعل أحد معلميهم يطلق عليهم لقب الفرسان الثلاثة تشبيهًا لهم بأبطال قصة الأديب الفرنسى الكسندر دوماس. «بروتوس وآتوس وارامیس».. كنت أنتظر حلول المساء على أحر من الجمر لأستمتع بأسمارهم التى تجعلنى أسبح فى عالم واسع من الخيال مع قصص الهميم الشائقة، ومنطق متوكلوف وتعليقاته الساخرة، وحلاوة حديث ابن عمى أشرف الذى يقطر حكمة.. كانوا يتوافدون فى بداية المساء، وتستمر جلسة سمرهم إلى ما بعد العاشرة، وفى بعض الأحيان يمتد بهم الحديث، فتستمر جلستهم حتى منتصف الليل خصوصا فى الليالى المقمرة.

كان فى كثير من الأحيان يحضر جلستهم تلك بعض شبان الحى ممن يماثلونهم فى العمر، مثل عمران النجار، ونوح الطموح ـ كنى بالطموح بسبب أنه سئل ذات مرة عن ما هى أمنيتك؟ فرد ببلاهة؛ أن أرى الخرطوم ـ ومن يومها أطلق عليه لقب الطموح تهكمًا وسخرية، أيضا يحضر جلسة

سمرنا الفريدة كل من الخضر ود الأحيمر الذى لاحظت ضيق الهميم ومتوكلوف من وجوده بينهم، وداوود ود عبد الكافى صاحب دكان الحى الذى يأتى عادة بعد أن يغلق محله عند العاشرة أو ما قبلها بقليل، وكنا دائمًا ما ننتظر مجيئه بفارغ الصبر، فقد اعتاد أن يأتى ومعه شيء من التمر والفول السودانى وأحيانًا بعض قطع الباسطة التى لم تجد حظها من البيع، باستثناء داوود ود عبد الكافى لم أكن أرتاح لوجود أى واحد بيننا من الذين ذكرتهم، فعندما ينضم هؤلاء إلى جلستنا يقتصر الحديث، أما فى السياسة، والذى يكون بطلاه متوكلوف والخضر ود الأحيمر اللذان لا يتفقان أبدًا، وأما يدور محوره فى أمور الزراعة؛ نجاحها.. فشلها، أو السخرية والضحك من نوح الطموح.

أذكر فى إحدى ليالى مارس من عام 1997 تأخر علينا متوكل كغير عادته، إذ كان دائم الحرص على أن يكون أول الحاضرين، فهو الضلع الثالث لمثلث الصداقة الذى جمع بينهم منذ التحاقهم بالخلوة، وهنا دعونى أحدثكم عن ذكائهم الوقاد، فقد حفظوا القرآن قبل أن يبلغوا سن العاشرة، وكانوا يتبادلون المرتبة الأولى بين أبناء دفعتهم منذ التحاقهم بالمدرسة وحتى نهاية تعليمهم، ولعل ذلك كان القاسم المشترك الذى جمع بينهم، مضافًا إليه كرمهم وسماحة نفوسهم.. أقلقنا تأخر متوكلوف. الساعة الآن التاسعة وضلع المثلث الثالث لا يزال غيابًا، ازداد قلقنا، فقال الهميم بنبرة حملت توتره: لنذهب إليه فى منزله.

نهض ثلاثتنا، أنا والهميم وأشرف وتوجهنا نحو منزل متوكلوف

الكائن عند بداية منحنى النهر فى الجهة الشمالية الشرقية للقرية، كنا نسير وجومًا إلى أن بلغنا وجهتنا.. طرقنا الباب وانتظرنا قليلًا ريثما فتحت لنا جدته لأمه زينب بت جار النبى الباب، كانت فى العقد الثامن من عمرها، بصم عليها الزمان بحدثانه حتى أحالها لما يشبه هيكلا عظميا نُفخت فيه الحياة، وهى التى قامت بتربية متوكل بعد وفاة أمه بعد ميلاده بشهرين، ألقينا عليها السلام، فردت علينا التحية، وأردفت بنبرة حزينة؛ تفضلوا..

سألها أشرف بنبرة قلقة؛ أين متوكل؟ واستطرد لم نره منذ البارحة.. أين ذهب؟..

تنهدت بعمق ثم قالت، ذهب معهم..

تدخل الهميم بنفاد صبر: من هم أولاء الذين ذهب معهم..

ـ لا أدرى .. قالتها بمرارة، ثم أردفت العجوز بغضب؛ الساعة الثالثة صباحًا وبينما كنا نياما إذا بى أسمع طرقا ملحا على الباب..

– ومن ثم.. تدخل أشرف وهو ينظر إلى العجوز بإشفاق..

– نهض متوكل وفتح لهم الباب، وبعد قليل دخل علينا خمسة أشخاص، قاموا بتفتيش البيت عنوة رغم تصدى متوكل لهم، وبعد أن فشلوا فى إيجاد شيء سمعتهم يتحدثون إليه بغضب، كنت أقف بعيدا عنهم، لم أفهم فيم كانوا يتحدثون، فى البدء حسبتهم لصوصًا، فسألت متوكل عم يريد هؤلاء اللصوص؟ فأجابنى بأنهم أفراد من جهاز الأمن جاءوا لاعتقاله.

غاب متوكل ثلاثة أيام، ليظهر بعدها فى حالة مزرية، إذ كانت آثار الضرب والتعذيب ظاهرة فى كل شبر من جسده النحيل.

كان أكثر الثلاثة ظرفًا، وأغزرهم علما وثقافة، وكان أكثرهم اهتماما بالسياسة، وكان مهموما بقضايا المساكين والمهمشين، ولهذا السبب كان انضمامه للحزب الشيوعى.. درس القانون بجامعة الخرطوم، وهناك ظهرت ملكاته الخطابية بعد انضمامه للطلاب الديمقراطيين واجهة الحزب الشيوعى ـ كان من النشطين القلائل الذين سببوا صداعا دائمًا لمنسوبى الحكومة فى الجامعة، الأمر الذى تسبب فى تجميد دراسته أكثر من مرة..

كانت رابطة طلاب القرية بالجامعات والمعاهد العليا قد أقامت فى تلك الليلة التى اعتقل فيها حفلًا تم فيه تكريم الخريجين الذين كان من بينهم متوكل.. كان حفلا استثنائيا حضره كل أهل القرية، وفى ختامه أمسك متوكلوف بالمائك وبدأ هجومه على الحكومة ومنسوبيها ومن لف لفهم، تحدث عن الفقر، والتهميش، والمدارس الآيلة للسقوط وتكدس التلاميذ داخل الفصول، تحدث عن الجوع والجهل والأمراض المزمنة التى فتكت بالناس، تحدث عن الحرب التى راح ضحيتها شباب كان يمكن أن يشاركوا فى تنمية البلاد وعمرانها، ختم متوكل حديثه بأن حرض الناس على الخروج ليطالبوا بحقوقهم.

بلغ حديثه معتمد المحلية، فبعث إليه بتلك القوة من أفراد الأمن التى قامت باعتقاله..

بعد أسبوع من تلك الحادثة فقدت جلسة سمرنا أحد أهم أعضائها، فقد كان متوكلوف ملحها خصوصًا عندما يكون فى حالة سكر.

قلت للهميم ونحن نتناول طعام العشاء وسط حوشه الرحب: سمعت أن متولكوف صار معتمدا لإحدى المحليات البعيدة عند عودته للبلاد بعد اتفاق نيفاشا..

- نعم.. وتزوج بإحدى موظفاته ذات الأصول الجنوبية.. قالها الهميم ضاحكا، ثم أردف: لم ترق له الحياة فى السودان بعد انفصال الجنوب، فهاجر فى أواخر العام الماضى إلى أستراليا.

- هل زار القرية فى فترة وجوده بالبلاد..

- زارنا أكثر من مرة، وفى إحداها مكث معنا قرابة الشهرين، كان ذلك قبل ثلاث سنوات.. تنهد الهميم وأضاف بحزن كأنه تذكر أيام صداقتهم: لقد تبرع بنصف المبلغ الذى بنى به المسجد الجديد..

طاف بذهنى فسقه، وشبهة انضمامه للحركة الشعبية، والكثير الذى كنت أعلمه ويعلمه الهميم عنه، فصحت غير مصدق؛ أيعقل أن متوكل فعل ذلك؟.

رمقنى بنظرة نارية وردد بغيظ: لا تنسى أن متوكل من حفظة القرآن، قال ذلك واستطرد؛ متوكل: كان أكرمنا، وأكثرنا سماحة ولطفًا.

قلت له بعد فراغنا من العشاء، وكان قبلها قد جاءنى بأوراق دون عليها أشرف بعض ذكرياته: متى دون أشرف هذه المواقف والذكريات؟

- على فراش الموت..

- ومتى وقعت فى يدك؟

- سلمنيها بنفسه، قبل موته بساعات..

تذكرت أن الهميم كان بجانب صديقه عندما فاضت روحه، فقد زاره فى ذلك اليوم العصيب، وبقى بجانبه إلى أن رجع مع جثمانه.. حارنى موقف ابن عمى فى هذه الجزئية، فقلت له: لماذا أنت بالذات؟ وأردفت: لماذا لم يقم بتسليمها لشقيقه أحمد مثلا.

أجابنى بحزن: ربما أرادنى أن أزيد فيها شيئا غاب عنه، قال ذلك ثم أضاف بثقة: لم يقلها صراحة، ولكننى قرأت سور الرجاء فى عينيه.

قلت للهميم ود الضو «الجزار» الذى بدأ الشيب يغزو فروة رأسه، وأنا أقوم بوداعه بعد أن أمضيت معه ليلة ممتعة اجتررنا فيها كل ما مضى من ذكريات: فى تقديرك، من قتل أشرف؟

ـ قتلته الفئة الباغية..

ـ ومن هى الفئة الباغية فى ظنك؟

- هى التى قتلت أشرف.. مد إلى بيده قبل أن يهُبَّ واقفًا وهو يردد ببغض فى عبارته تلك. وعيناه الواسعتان ساهمتان إلى المصباح المثبت على الجدارن الخارجى للغرفة، وقد كانت تبرق غضبًا وبغضًا وحنقًا.

هشام الصافى عبد الكريم.

أمستردام..

فى التاسع والعشرين من سبتمبر 2013

هوامش:

العنقريب: السرير

الفندك: إناء حديدى أو خشبى يتم فيه سحن البهارات ونحوها.

السحارة: صندوق خشبى، كانت تحفظ فيه بعض الأغراض المنزلية.

السوكرة: حظيرة كانت تحبس بداخلها البهائم السائبة.

الضهارِى، أو الضهرة بتشديد الضاد وفتح الهاء: القرى البعيدة المحاذية لضفتى النيل الأزرق..

الفهرس

- نبوءة الهائم الغامض.. أوشينا 9
- فى الأحراش والأدغال.. 25
- معسكر فتاشة.. 45
- أحد عشر كوكبا.. 113
- جوبا: البؤس والبؤساء 123
- فى إندايا كلتوم الدلالية.. 131
- معركة توريت.. 159
- خاتمة.. 175